قصة تاريخية قصيرة

الخليفة

السنوات الاولي ١٨٤٦ - ١٨٨٥



عصمت حسن زلفو

الخليفة

السنوات الأولى ١٨٤٦ - ١٨٨٥

قصة تاريخية قصيرة

مقتبسة من رسالة ماجستير

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى ذكرى صلاح أحمد إبراهيم . .

الذي أعطى ولم يأخذ

مقدمة

كنت أظن أن ضجيج المعارك ودوي المدافع ودبيب أقدام الجيوش الزاحفة هي وحدها الكفيلة بتحريك قلمي . أما تتبع الأحداث البطيئة لسيرة رجل واحد منذ طفولته وحتى بلوغه مرحلة الرجولة فما كنت أظنني بمطيقها ولا قادراً عليها .

ولكن سيرة الخليفة عبدالله كانت أمراً مختلفاً . فنادراً ما تعرضت شخصية سوادنية لحملة تشويه منظمة كتلك التي انصبت عليه ، من الداخل والخارج ، من أعدائه ومن بني وطنه .

وقليل من الرجال بلغوا ما بلغه من سطوة وسلطة ، وقليل منهم من أسدل على حياتهم ستار من الغموض والتعتيم المتعمد كالذي أسدل عليه ، وبالذات في الفترة الأولى من حياته ، وهي أكثر فترات حياته غموضاً .

وتلك هي الفترة التي اخترت أن أتحدث عنها ، وهي الفترة الممتدة من عام ١٨٤٦ - تاريخ مولده بالتقريب - وحتى لحظة اعتلائه المنبر بعد ساعات من وفاة المهدي ليتقبل البيعة وليصبح الرجل الأول . أما فترة الثلاثة عشر عاماً التي تلت تلك اللحظة ، فهناك ما يزيد عن خمسين الف وثيقة أصلية عنها تروي بأي كفاءة واقتدار أدار بها هذا الرجل تلك الأرجاء الشاسعة المتنافر أهلها ، وتبين أي ظلم صارخ وتشويه متعمد تعرضت له كل أفعاله ، وبأي ذكاء خبيث اختلقت عشرات القصص المخيفة لتبقى عالقة بالأذهان على مر السنين وتطغى على غيرها من عظمة إنجازاته ، وأقلها وقوف سودان القرن التاسع عشر سداً منيعاً أمام التكالب الاوروبي على افريقيا وجيرانه يتساقطون حوله واحداً بعد الآخر ، تارة بخداع زعمائهم بالخرز الملون ، وتارة تحت ستارة التبشير المسيحي ، وأخرى بالجيوش والسلاح بلا مواربة . وتلك

القصص المختلقة الخبيثة سلاح دعائي خطير ، ألم يزل كل ما نذكره عن علي دينار هي تلك القصة الشهيرة عن سحق الطفل الذي سمي باسمه « بالفندق » وكل ذنبه أنه اتخذ الموقف المبدئي الطبيعي فأيد الخلافة العثمانية دون حكام السودان « الكفار » .

* * * *

تبدأ قصتنا بفصلين قصيرين عن الخليفة عبدالله وأسرته « دار التعايشة » و « تورشين » ثم فترة شبابه المبكر « الصبا » و « عبدالله والباشا » و « الجولة الثانية » إلى اللحظة الحاسمة حين التقى بالمهدي وبدأت مسيرة الثورة المهدية المعروفة : وتلك هي فصول « اللقاء » و « أبا » أما الفصل الثامن « الجبال والرمال » والذي يتحدث عن العامين اللذين أمضاهما في كردفان مع المهدي وشهد معارك جبال النوبة وسقوط الأبيض وملحمة شيكان ، فهو يعتبر الفصل الرئيسي ، فقد تحدثت فيه عن صعوده للسلطة ليصبح الرجل الثاني في الثورة والمسئول التنفيذي الأول ، يليه « أمير جيش المهدية » وهو فصل تحليلي غير متعمق لشخصية الرجل .

إن فن التاريخ في أسمى درجاته يتمثل في القدرة النفسية والحس التاريخي للمؤرخ الذي يمكنه أن يتقمص شخصية من يتحدث عنهم وأن يضع نفسه في نفس موضعهم وأن يرى الأمور بمنظارهم ويحس بأحاسيسهم .

إن الفترة التي تحدثت عنها فترة غامضة من حياة الرجل ، ولذلك لم يكن « الحفر والتنقيب » عن المصادر بالأمر الهين . فخلاف المصادر الأولية وأهمها خطابات ومنشورات المهدي ، وبالأخص ما كان موجهاً منه الخليفة أو ما تعلق به ثم المخطوطات مثل مخطوطة الكردفاني وعلى المهدي والأنصاري ومحمد آدم حلو ، هناك المصادر التقليدية الثانوية التي لم تجد حتى الآن العناية اللازمة : وهي الروايات الشفاهية المتناقلة ، فهناك رواية الشيخ محمد عوض الذي عاصر الخليفة منذ طفولته في دارا وتوفي عام ١٩٧٨م عن عمر يتجاوز مائة وعشرين عاماً ، وهناك روايات

عشيرة الخليفة التي تناقلوها عن آبائهم وامهاتهم وكلها لو شذبت وعرضت للتدقيق والتمحيص لأصبحت مصدراً ثراً في كتابة تاريخ السودان .

إن السيل المنصب من الإتهامات والتجريح الذي وجه للخليفة يجعل عدم التحيز هو عدم الموضوعية ذاته ، ولكني بذلت جهدي أن أقدم وجهة نظر متزنة ومنطقية بقدر الإمكان . فالرجل كانت له أيضاً مثالبه وعيوبه الجسيمة .

عسى أن يجد القارئ في هذا الجزء قليل من الفائدة وبعضاً من المتعة .

والله الموفق ،،،

عصمت زلفو

[شمبات ١٩٨٧م]

دار التعايشة

أصاب السأم المؤرخ التونسي ، وهو يجاهد عبثاً أن يحصي ويدون تلك الأشتات المتفرقة من البشر ، المتباينة الألوان والسحن والأعراق ، والتي اكتظت بها سلطنة دارفور في أوائل القرن الماضي فهتف يائساً « قوم لا يحصيهم إلا خالقهم » .

فمن قبائل الأبالة في الشمال بسحنهم العربية الخالصة وانوفهم المعقوفة وشعورهم المسترسلة ، إلى الفور في الوسط بسوادهم الداكن وملامحهم الغليظة ، وهم يشيرون إلى لونه الأبيض ضاحكين « ما نضج في بطن أمه » وكأن برحم الام قدراً للطهي يكتسب فيه الجنين اللون الأسود المحروق ، مروراً بالبقارة ، النتاج الأمثل للمزيج العربي الأفريقي ، جنوباً إلى مشارف قبائل الدينكا النيلية ، مردة النيل بقاماتهم المشوقة المديدة وأطرافهم الدقيقة .

ولم تكن الأرض التي حملت تلك السحن والأعراق بأقل تبايناً وتلوناً ، فالخضرة الكثيفة والمناخ الاستوائي في السهول المنبسطة الجنوبية ، تتسامق لآلاف الأقدام مناطحة السحاب في هضاب جبل مرة الخصبة لتنحدر منه شمالاً متلاشية تدريجياً حتى تبتلعها صفرة الصحراء القاحلة في شمال دارفور منذرة بما يختبئ غربها من بحر الرمال اللامتناهي في الصحراء الكبرى .

فمنذ قرون ليست ببعيدة سكنت نهائياً حركة البقارة المتجهة شرقاً باصطدامها بالنيل الأبيض ، خاتمة رحلتها الطويلة من الشمال الأفريقي (١) عبر آلاف الأميال

---

(١) نظرية كنيسون عن أصل البقارة ، وهي نفس رواية البقارة عن موطنهم الأول ، والتي لم يعارضها ماكمايكل كثيراً ، تفيد بأن البقارة وفدوا من الأجزاء الجنوبية للشمال الأفريقي الغربي وظعنوا في الصحراء الكبرى .

من الصحاري الواسعة وهي تتخلل الممالك الصغيرة حيناً وتتجاوزها حيناً آخر ، لتحتل الحزام العريض في جنوب كردفان ودارفور . ومن المستبعد خلو تلك المراعي الخصبة من السكان قبل تدفق البقارة عليها ، ولابد ان قاطنيها الاصليين من القبائل النيلية تعرضوا لضغط متصل من العنصر العربي الاقوي ، فجلوا عنها جنوباً مكرهين (٢) .

وأن تفسير حركتهم المتجهة شرقاً هي طبيعتهم النافرة من كل سيطرة وخضوع لأي من الممالك المنتشرة غرب النيل الأبيض . فهم لا يطيقون البعد عن تلك الممالك والسلطنات لحاجتهم لأسواقها للمقايضة والتجارة ، ولا يطيقون سيطرتها . فالوضع المثالي كان أن يكونوا حولها في لحظات ضعفها وتفككها ثم يرحلون عنها شرقاً عندما تقوى شوكتها . وهو ما حدث عند استيطانهم حول مملكة بورنو أولاً ثم رحلوا عنها شرقاً إلى مملكة وداي ، ثم واصلوا السير شرقاً مرة أخرى حتى سلطنة دارفور ، فتمددت ديارهم حتى النيل الأبيض في هيئة حزام البقارة الحالي .

إن الخلل البسيط في نظرية كنيسون هي جعله للعامل السياسي المحرك الأول لترحال البقارة متناسياً لحد ما عوامل الطبيعة من جفاف وتصحر . فهناك أدلة قوية تشير إلى حلول الجفاف في دورات متعاقبة تقاصر الفاصل الزمني بينها فمكنت الصحراء من ابتلاع العديد من الوديان والمراعي الخصبة خاصة حول بحيرة تشاد ، مما أجبر البدو ، ومنهم البقارة ، للنزوح أما شرقاً أو جنوباً .

أما النظرية الأخرى التي تصر على نزوحهم من مصر جنوباً ثم اتجاههم غرباً فمصدرها الأساسي هو ابن خلدون الذي ذكر أن مجموعات كبيرة من عرب جهينة ظعنوا جنوباً ثم غرباً في النصف الأول من القرن الرابع عشر سعياً وراء الأمطار وتجاوزوا حدود السودان الغربية الحالية كثيراً حتى وصلوا (بورنو) فهي تعكس الوضع تماماً بحيث توصف هجرتهم بأنها كانت من الشرق للغرب وليس العكس وقد أيدها بعض الباحثين امثال بارث ، ويميل اليها ماكمايكل كثيراً . بالطبع لانستطيع تجاهل هجرة العرب للسودان مباشرة عبر البحر الاحمر والتي يعتقد البعض انها كانت الهجرة الرئيسية التي تجوهلت عمداً .

(٢) CUNNISONH.A. BAGGARA ARABS, OXFORS, 1966, PP1
MACMICHAEL, PP138,176,177.
BARTH, TRAVELS DISCOVERIES IN NORTH AND CENTRAL AFRICA (2) VOL5,P353-56.

وسرعان ما وسمت أفريقيا الأستوائية أبنائها الجدد بسماتها المميزه ، فانتجت مزيجاً عربياً أفريقياً رائعاً وضح أثره القوي في كل نواحي حياة البقاره : فخضرة المراعي الكثيفه ووفرة المياه مكنتهم من تربية الماشيه بدلاً من الإبل ، بل طوعوها لتصبح دابة الركوب والحمل ، والشمس الاستوائية والتزاوج ألقيا بظلال داكنه على البشره والملامح ، والنساء نضون الثياب عن نصفهن الأعلي ، فبرزت أثداؤهن الصلبه مشرئبه نحو الشمس الأفريقيه ، بل مشطت الرؤوس في عشرات الضفائر الفرعونيه .

وفي ذيل قطار البقاره المتجه شرقاً قبعت قبيلة التعايشه . وإن كان لنا أن نأخذ بنظرية كنيسون ، فالتعايشة هم أحدث الوافدين إلي حزام البقاره الحالي ، فهم في أقصي غربه (٣) .

ولا بد أن تلك الثلل الصغيره من الرجال تميزت بالبأس وقوة الشكيمه ، وإلا لذابوا في أفرع البقاره الكبري المجاوره ، فسرعان ما انتزعوا قطاعاً من المراعي الخصبه أسوة بغيرهم من قبائل البقاره ، عرف بدار التعايشة .

والبقرة ، حيوانهم المدلل ، وإن كانوا هم رعاتها ، فهي التي تقودهم وتوجههم وتكيف حياتهم ـ تجرهم وراءها في فصل الخريف ضاربة شمالاً عبر نيالا هاربة من الذبابة حتي تقترب من الفاشر ، ثم تنثني جنوباً في أشهر الجفاف ، مروراً بمراكزهم ومحطاتهم المعروفة مثل ساسلقو ، ومركندي والدقاليب والدونكي حتى يلقوا بعصا التسيار في أم روق وأم دافوق على حدود أفريقيا الوسطى (٤) ، وهي أقصى مضاربهم جنوباً .

---

(٣) تجاورهم وتتداخل في أراضيهم قبيلة السلامات وأغلبها يقطن أفريقيا الوسطي .

(٤) شأنها شأن أغلب الحدود التي رسمها الأوربيون بين الدول الأفريقيه نجدها غالباً ما تشطر أبناء الجلده الواحده إلي شطرين ، متجاهله مناطق القبائل وقطاعات الرعي .

وليس أدل من أنها نفذت لراحتهم الإداريه من أن أغلب خطوط الحدود في القاره الإفريقيه مستقيمه وليست متعرجه لتستوعب الكيانات القبليه المختلفه حسب مناطق سكناهم ورعيهم الحقيقيه .

ولعل هذا احد الأسباب الرئيسيه لمشاكل الحدود المزمنه بين الدول الأفريقيه حتي يومنا هذا . بل إن آخر نزاع بين قبيلة السلامات والتعايشه تفجر في عام ١٩٧٩ وأزهقت فيه أرواح كثيره .

ويتداخل ذلك القاطع الطولي لمراعي التعايشة الممتد شمالاً وجنوباً مع قبائل البقارة الأخرى (٥) فشمالاً تحدهم ديار الهبانية وشرقاً تحدهم ديار بني هلبة ، أما الجنوب فهو مجال تنفسهم الحيوي . فقد توغلوا كثيراً داخل أفريقيا الوسطى قبل وضع تلك الخطوط الوهمية التي أسماها الاوربيون حدوداً دولية (٦) والتعايشة يعتبرونها ديارهم حتى الآن .

إن أصل التعايشة العربي ، كفصيلة من فصائل البقارة ، وانتماءهم لجهينة اليمنية لا خلاف عليه (٧) (٨) والروايات المحلية عن أصول التعايشة بالذات تؤيد نظرية وصول البقارة إلى ديارهم الحالية عبر الصحراء من الشمال الأفريقي . فهي تذكر أنهم مكثوا عشرين عاماً في منطقة مليط المطلة على الصحراء الكبرى ، حتى أن أحد الوديان في تلك المنطقة البعيدة عن ديارهم الحالية إلي الآن يسمى بوادي التعايشة (١٠) .

تجمع تلك الروايات المحلية على أن لفظة تعايشة ألصقت بالقبيلة نسبة لجدهم أحمد الملقب بأحمد تعيش والذي حمل هذا اللقب منذ صغره حين كان والده ، حسب الله بن حماد جنيد ، يهدهده وهو رضيع يتيم بعد وفاة أمه قائلاً : « إت تكبر وتعيش لي » وتعيش هذا هو الحلقة الأساسية في أصول وفروع التعايشة ، ففي الاصول فيما بعد جنيد - جدهم الاكبر - يرجع أدب التعايشة نسبهم إلى الهاشميين (١١) .

---

(٥) فرح عيسى ص ٧

(٦) بمضاهاة خريطة ناختنقال ، الرحالة الالماني الذي زار دارفور في أوائل القرن التاسع عشر ، بالخرائط اللاحقة والحديثة ، لا نجد إلا اختلافاً طفيفاً في القطاع الرعوي لدار التعايشة طوال هذه السنين .

(٧) MACMICHAEL VOLIPP. 292-295

(٨) MACMICHAEL, - P17

(٩) فرح عيسى ص ١٢ .

(١٠) أقوال فضل النبي أصيل . شريط رقم م د أ أ ، ١٩٧٠ دفتر رقم (١ ص ٨١) .

(١١) أطلع الاستاذ فرح عيسى على النسب المخطوط بواسطة أمبدي أبكر الطاهر المنقول من شجرة الأنساب لكاتبها الفقيه محمد بن الشيخ محمد الطاهر .

ولهذه الرواية أهمية خاصة ، فانتماؤهم للهاشميين يفصم عرى التعايشة عن الأصول المعروفة لبقية قبائل البقارة المنتمية إلى جهينة اليمنية مما يجبر الباحث على ارتياد مجاهل تاريخية أكثر غموضاً وتعقيداً ، فبدلاً من تتبع قصتهم من خلال الخطوط البسيطة الواضحة كجزء من قبائل البقارة الجهينية ، تنشأ أسئلة عدة – أين كانوا طوال هذه القرون ؟ وكيف نزحوا لافريقيا ومنها للسودان ؟ وفي أي من الحقب المضطربة في التاريخ العربي المائج بتحركات القبائل والجيوش ؟ ولعل الرواية المتناقلة محلياً تفسر أسباب هذا الغموض والابهام ومفادها أن الخليفة عبدالله ، بسعيه الدؤوب لاقامة الدولة الموحدة وتذويب العصبية القبلية ، أمر برمي نسب القبيلة المكتوب في النيل فلا حاجة لهم به قائلاً قولته المشهورة (أنا أمكم وأبوكم المهدي) .*

ولم يكن تتبع بطون وأفخاذ قبيلة التعايشة المنحدرة من أحمد تعيش بأهون أمراً ولا أقل مشقة ، فالأسباب موضوعية تداخلت وتزايدت تلك البطون بانضمام أفرع أخرى دخيلة من قبائل البقارة – إما لانها إنحدرت من الشقيقين الآخرين – سراج وهضليل ، أو لأن فترة حكم الخليفه عبد الله الطويله وصعود نجم التعايشه السياسي في البلاد أغرى عدداً من قبائل البقارة الأخرى في نفس المنطقه بالانتساب إليهم .

وعلى كل حال ، برزت مدرستان رئيسيتان في تحديد بطون التعايشه تمثل إحداهن رواية شيوخ التعايشه الموجودين حالياً بدار التعايشة وتعود بالبطون الموجودة الآن إلى أبناء أحمد تعيش الثلاثه سراج وهضلول ومرزوق (١٢) أما المدرسه الأخرى وهي مدرسة ماكمايكل فهي تقسمهم إلى فرعين رئيسيين وهما عرج (١٣) وقلادة ، وهما الوسمان الرئيسيان المستخدمان لتمييز ماشية التعايشة .

* * *

---

* فرح عيسى – التراث الشعبي لقبيلة التعايشة – معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية – جامعة الخرطوم ١٩٨٢ ص ٣ .

(١٢) شريط مسجل لأقوال الشيخ محمد عوض .

(١٣) MACMICHAEL P.292

لم يفعل الزمن كثيراً بتلك البقاع . فالجفاف ثم التصحر ضرب ضربته القاصمه الأخيرة في أواسط وشمال دارفور . أما جنوب دارفور ، مسرح روايتنا ، فلا زال ينعم بتلك الخضرة الكثيفة والمراعي الواسعة الممتدة على مدى البصر والتي مازالت تموج بالحركة المتصلة لمئات الألوف من الأبقار والماعز .

ولو كان البقارة وثنيين ، لكان الههم الأكبر (البقرة المقدسة) بلا منازع . فقد دارت حياتهم في فلكها . ففي سبيل بقائها ونموها يحثون السير مئات الأميال بحثاً عن الماء والعشب ، ظاعنين شمالاً حتى يقتربوا من الفاشر ثم منثنين جنوباً حتى يعبروا حدود أفريقيا الوسطي . بل فصول السنه تقسم لديهم لقسمين فقط (خريف) و (صيف) أي فصل الجفاف (١٤) . ولكن إذا تبصرنا بما يجود به ذلك الحيوان المعطاء لزال عجبنا ، فهو دابة الركوب وهو واهب اللبن والسمن واللحم وهو مخصب الأرض بروثه ، بل هو اداة الزينة الرئيسية لتلميع الشعور المسترسلة وتغذيتها وتطرية بشرة النساء البرونزية وحمايتها من أشعة الشمس الحارقة .

وذلك النمط المألوف لحياة التعايشة الرعوية ، تخللته مشاغل جانبية أخرى . فأصحاب المواشي القليلة توزع جهدهم بين الزراعة والرعي . ومن هنا تناثرت الحقول الزراعية الصغيرة على طول وعرض وديان دار التعايشة في (جفاوة) و (رهيد البردي) و (أبوري) (حرازة) (ماحقو) (القناية) وتكفلت تلك المناطق الزراعية بتحقيق بعض الإكتفاء الذاتي من الدخن والذرة والخضروات .

ومن الصعب القول بأن الصيد يأتي في المرتبة الثانية بعد الزراعة . وعسى ألا تخدعنا لفظة الصيد فنحسبها هواية لتزجية الفراغ ، فإنه يشغل حيزاً ضخماً من حياتهم وكان هاجسهم الأكبر .

---

(١٤) الصيف عندهم هو الشتاء أي الأشهر الممتدة من اكتوبر حتى ابريل .

فهو مصدر اللحوم إذ هم يضنون بأبقارهم الحبيبة فيمدهم الصيد بلحم الجاموس والغزلان والتيتل ، بل ولحم الفيل . والأخير تمدهم أنيابه بالعاج الابيض الثقيل ، مصدر الثروات النقدية الكبيرة المفاجئة . (١٦) وأخيراً هو الملهم للأغاني والأشعار التي ترددها الفتيات تمجيداً لشبان القبيلة .

فالتعايشة ، كبقية قبائل دارفور العربية ، رنت أفئدتهم دائماً للحرب والقتال كقمة للأداء البشري من شجاعة وتضحية وفروسية وذكاء ، سواء استغرقت الحروب بضعة أيام في غارة قبلية خاطفة ، أو دامت سنوات في نزاع متصل حول المرعى والترد ، فهي ملهمة الملاحم الغنائية والشعرية الكبرى لأجيال عديدة ، أما الصيد ، فهو نشاط مستمر تتجدد في أغانيه الأسماء والمواقف .

كان صيد الفيل هو الجائزة الكبرى . فضخامة الحيوان وشراسته ومئات الأرطال من العاج الثمين وأطنان اللحم جعلت صائد الفيل « نجم » القبيلة . والذي لا يجرؤ أب أن يرده إن جاء طالباً يد ابنته (لو عندك ميتين بقرة وصاحب الفيل جاء خاطب وشايل حربه بأخذها هو) (١٧) .

وصيد الفيل تسبقه تحضيرات مضنية ، من اختيار الجياد القوية وتسمينها بغذاء مخصوص من الغلة لتهيئتها للطراد القادم ، إلى شحذ الحراب وعجم قنواتها . وتلك هي التجهيزات الإدارية . أما عملية الصيد نفسها فأشبه بعملية عسكرية تحدد ملامحها (١٨) خطة قتالية متكاملة . فمنذ البداية يعين قائد للعملية وهو يسمى (بالعقيد) وهو المسئول عن كل مراحل العملية حتى مرحلة توزيع الغنائم ، وعادة ما يكون من أبطال الصيد ، ثم تقسم جماعات الصيد إلى مجموعات يسمى كل منها

---

(١٦) قنطار العاج يوازي سعر ثلاثين بقرة .

(١٧) فرح عيسى ص ١٥٦ .

(١٨) فرح عيسى ص ١٥٦ .

(عقد) وفي داخل كل مجموعة توزع المهام . فهناك (الكرار) الذي يظهر للفريسة ثم يندفع بجواده القوى أمامها مستثيراً إياها لتطارده ، جانباً لها لأرض القتل ليمكن العقيد وبقية الصيادين من تسديد ضرباتهم القاتلة بحرابهم الحادة الثقيلة .

وقد يبدو لنا أننا تحدثنا بقليل من الإسهاب عن الصيد ، فلنا العذر . فلاشك أن الصيد والطراد كانا المدرسة الأولى التي تلقى فيها بطل روايتنا دروسه الاولى في الحياة ، سواء بالمشاركة أو بالاستماع . وعندما نستمع الآن لشيوخ التعايشة وهم يتحدثون بشغف عن تقاليد الصيد وأبطاله ، ندرك كم غاصت في أعماقهم وهزت جوانحهم تلك الأيام الغابرة .

ولاشك أن فتى من كرام القوم ، والابن الأكبر لأشهر « فقيه » في دار التعايشة ، لم يكن لينجو من سحر الصيد ، ولا كان منتظراً منه إلا أن يكون أحد أبطاله . فهي سنة علية القوم ومحط آمال أقرانه والساعين إلى العلا والشهره في القبيلة ، بل حتي أصدقاءه وأقاربه الذين رفعهم إلى المجد فيما بعد وسطروا صفحات التاريخ بأروع ملاحم الثوره المهديه ، أمثال الزاكي طمل (١٩) وحمدان أبو عنجه (٢٠) ويونس الدكيم (٢١) ، ألم تلمع نجومهم اول مالمعت كأمهر الصيادين ؟ ولا بد أن خطط الصيد وتوزيع مهام العقيد ونصب الكماين للفريسة التي طال إنتظارها كانت هي دورات التدريب التكتيكية الأولى التي نمت قدراته ليصبح ذلك المقاتل الشهير (أمير جيش المهدية) والتي أهلته ليلعب ذلك الدور الحاسم في معارك الثورة المهدية الأولى ثم تطورت لتلك الموهبة الفذة في حشد وتحريك جيوش حشد فيها مئات الالوف من الرجال في مسارح حروبه المتسعة .

---

(١٩) انظر سليمان محمد سليمان – الزاكي طمل .

(٢٠) أ . أقوال فاطمة يونس الدكيم .

(٢١) ب . سليمان محمد سليمان . حمدان أبوعنجه .

وإذا حاولنا مجاراة نظرية العقاد في كتاباته عن (مفتاح الشخصية) لقلنا أن مفتاح الشخصية فى قصة عبد الله كانت هي (الصياد) . ففي سجل حياته الحافل ، تبدو لنا دائماً صفحات الصياد الماهر : ثبات الأعصاب والتدبير المضني ، والتأني ثم السرعة الخاطفة عند سنوح الفرصة .

وإن كان القنص والطراد ممارسة مستديمة للتعايشة ، تغذي خيالهم دوماً ، فقد كانت لحروب التعايشة على تباعدها الزمني أثر أكبر ، فهم لا ينفكون يجترون أحداثها وبطولاتها لعشرات السنين .

ففي القرنين أو الثلاثة منذ أن سكنت حركتهم واستقروا بديارهم الحالية خاضت القبيلة ، شأنها شأن قبائل البدو الأخرى ، عدة حروب ، منها ماكان بين بطون القبيلة نفسها ، ومنها ماكان موجهاً ضد القبائل الأخرى .

ومن الأولى إشتهرت حرب السخت (٢٢) ، أي الغضب والسخط الألهي الذي حل بهم حيث مات عدد كبير من رجال القبيلة لسبب تافه وهو رفض الشيخ حماد ـ أحد زعماء القبيلة ـ إعفاء عشيرة النجمية من الضرائب ، حيث كرم السلطان حسين أحد علمائها (جبريل العقيد) بإعفاءه من دفعها ـ وفسرت العشيرة أن الإعفاء يشملهم جميعاً وامتنعوا عن أدائها وعندما سار إليهم الشيخ حماد على رأس وفد لمراجعتهم قتلوا كل الوفد ونجا الشيخ حماد بجلده ولكنه جمع كل قبيلة التعايشة ضد فرع الجبارات ، الذين إحتمى بهم جبريل ، فقتلوهم قتالاً فظيعاً .

أما حرب الميرم عرفه فقد ثارت بين التعايشة وسلطان دارفور . فقد أقطع السلطان حسين ابنته الميرم عرفه بعضاً من ديار أبو ريده إحدى فصائل التعايشة . وكانت تزور دار التعايشة كل عام فيقابلونها بالترحاب والإحتفالات ويؤدون ما عليهم

---

(٢٢) فرح عيسي ص ٣٦ ـ ٥٣ .

من خراج ولسبب غامض إختلفوا معها في إحدى السنين وتطور النزاع إلى أن قتلوها ومثلوا بجثتها . وبالطبع لم يبتلع السلطان الإهانة فوجه إليهم تجريدة إنتقامية تعاون معها شيخ الهضاليل ، وقد كانوا من الساخطين على فعلة عشيرة أبو ريده ، فأوقعوا بهم وأبادوا ثلثي الذكور من العشيرة (٢٣) .

وقد دارت حروبهم الأخرى مع قبائل بني هلبة بسبب الغارات المتبادلة لنهب المواشي ودامت سنين طويلة وسقط من الجانبين الكثير .

وقد خلفت تلك الحروب المتصلة أدباً شعبياً يمجد حروب القبيلة وأبطالها أمثال أحمد خوف وضو البيت وهطال الذي أفنى عمره في معارك الثأر لابنه وتغني به الشعراء في ملاحم أشبه بملاحم إمريء القيس .

****

كانت تلك ديار التعايشة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر حيث شب عبد الله التعايشي . وشأنها شأن بادية دارفور وكردفان كانت ديار تموج بالبشر وتكتظ بالقبائل التي حملت معها من موطنها الأول بنور العنصر العربي بكل مكارم أخلاقه وحسن سجاياه مع بقية من حمية الجاهلية الأولى .

وفي وطنهم الجديد ، أشبعتهم وأروتهم الأرض الأفريقية المعطاءة ، بأمطارها الغزيرة وسهولها الخضراء الكثيفة ، فجادت أبقارهم سمناً ولبناً ، وابتعد عنهم إلى الأبد ذلك الخوف المؤرق الغريزي من الجوع والعطش ، ألم يسخر تابع سلاطين عندما سأله أن يعد زاداً للسفر (المسافر لا يحمل زاداً هنا ــ فالطعام متوفر في كل مكان في دارفور) شبعت البطن وروي الجوف وبقي ظمأ الروح . أين يروي ؟ كان تراث القبيله القديم من الأقاصيص والأحاجي ، وكانت روايات أبطال التعايشه أحمد خوف

(٢٣) يروي في أدب التعايشه أن أحد حكماء أبو ريده اوصى بأن يزوج بقية ذكور القبيله حتى العبيد منهم بالإناث فتكاثر النسل مره أخرى .

وهطال ، وكانت بطولات الصيد وأغانيه ، وكانت حسناوات القبيلة وقوافي الغزل المطولة ، ولكن كل ذلك لم يكن إلا جداول صغيرة ، فهناك النبع الكبير الذي تزود منه القوم بزاده المعنوي .

فمن اللافت للنظر المكانة السامية التي تبوأها الفقهاء بين قبائل البقارة ــ فهم المعلمون للغة والدين ومكارم الأخلاق لأجلاف البدو ، وهم الملاذ في النوائب بالرقي والتعاويذ إن مس القوم ضر ، وهم القضاة والمفسرون لشريعة الله ، وديارهم ملاذ عابري السبيل تجذبهم بنيرانها المتأججة ليلاً ونهاراً كالمنارات في بحر الظلام الأفريقي الدامس وبهمهمات الصبية وهم يتلون القرآن منذ بياض الصبح وحتى اسوداد السماء .

كان أولئك الفقهاء ، صغيرهم وكبيرهم ، مرشدي القبائل وهداتها . ولكن الأبصار شخصت ورنت الأفئدة إلي كبيرهم الذي طال إنتظاره لقرون عديدة ليوحد تلك الأشتات المتباينة ويقودها إلي المجد والسؤدد (ويملأ الأرض عدلاً وخيراً كما امتلأت ظلماً وجوراً) : المهدي المنتظر .

ومن الصعب القول أن التعايشة ، أو بقية بدو دارفور ، عانوا من الظلم والقهر ليكون إنتظارهم وتشوقهم للمهدي المنتظر ليرفعه عنهم . فسلطة سلطنة دارفور عليهم كانت سلطة إسمية ، ولم تزد عن فرض ضرائب متباعدة ، وزعامات القبائل كانت سلطتهم أبوية وعرفية ، وتركت تلك القبائل وشأنها تمارس حياتها لاتحكمها حقيقة إلا نواميس القبيلة العرفية . فلم تمسهم بعد مظالم الحكم المشهورة التي تواترت إليهم من (دار صباح).

إن العامل الأساسي الذي ساهم في نمو الفكرة وتملكها للاذهان كان : صلة دارفور بغرب أفريقيا وشمالها ، أحد مراكز إنتشارها في القرون الأخيرة ، إما لأن تلك الصلة لم تنقطع أبداً ، وهو المؤكد ، أو لأن قبائل البقارة حملت بنور الفكرة منذ هجرتها عبر الصحراء الكبري .

وبجانب عشرات التفسيرات التي قدمها الباحثون عن سيطرة الفكرة على الأذهان طيلة تلك السنوات لم يكن الظلم الإجتماعي على الأقل في دار فور — أقوى بواعثها . فإن أخذنا مقولة أن الإنسان حيوان سياسي بقليل من الجدية ، والسياسة لا تعني في ذلك الزمان وفي تلك البقاع أكثر من السعي لبسط النفوذ على الآخرين وإنشاء الممالك والدول — دولتهم هم وليست سلطنة دارفور الاسمية الناعمة ، ولا حكمدارية الخرطوم البعيدة المنفرة . الأمر إذن كان ببساطة هو التعطش الغريزي للأمم للبحث عن بطل (هيجل) التاريخي والسير والقتال خلف الذي (لاتهزم راياته أبداً) .

وفي إحدى قرى دارفور المسماة بطبور ، حيث تأججت نار المسيد ليلاً ونهاراً ، ولازال رمادها باقياً حتي يومنا هذا ، كان يقيم أحد الفقهاء المبشرين بالفكرة محمد الملقب بـ (تور شين) .

تورشين (١)

من طرائف التاريخ ، أن بعض أبطال الأمم والقوميات المفرطين في عصبيتهم لها ، والمغالين في سعيهم لمجدها ، لا ينتمون أصلاً لتلك القوميات : فلا نابليون كان من فرنسا ، ولا هتلر كان من ألمانيا ولا سيمون بوليفار كان من أمريكا اللاتينية . ولم نذهب بعيداً ؟ فحتى عثمان دقنه لم يكن من البجه ، فقد إنحدر من أصل كردي ، ومن المدهش أيضاً ، ندرة الأشعار والملاحم التي تتغني بمجد عبد الله بن السيد محمد في أوساط التعايشة ، وهو السبب أصلاً في شهرتهم ودخولهم تاريخ السودان من أوسع أبوابه ، خاصه بين قبيلة اشتهرت بثرائها التراثي وتخليدها للصغيرة والكبيرة ، حتي عن أبطال الصيد والغارات القبلية .

وقد يعزو بعضنا ذلك التجاهل الغريزي ، غير المقصود ظاهرياً ، إلى ما حل بهم من تهجير وتشريد أثناء المهدية ، ثم من تنكيل وقهر من بعدها ولكن لعل السبب الحقيقي هو أن الرجل لم يكن أصلاً منهم . فالخليفه عبد الله الذي اشتهر بعبد الله التعايشي ، لم يكن تعايشياً من ناحية الأب .

فقد انحدر جده القطب الواوي التونسي من جنوب تونس إلي بلاد السودان (٢) في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد تضاربت الأقوال حول أول من حل من أسرته بدارالتعايشة ، لكن معظمها يجمع على أن حفيده علي (٣) الكرار بن موسى

---

(١) من المألوف في أوساط الفقهاء ، وغير الفقهاء ، تكنية المشهورين المبرزين في مجالهم بأسماء السباع والحيوانات قوية الشكيمة ، كتمساح الكدرو ، ومرفعين الفقراء ، وسم ساعة ، وجمل الشيل وفي غير السودان كنمر البنغال وأسد كشمير . وليس ببعيد عن الأذهان قصة البدوي الذي قصد مدح المعتصم (بطريقته) : أنت كالتيس في قراع الخطوب .

أغلب الظن أن تورشين لفظة كان يطلقها التعايشة على الجاموس البري وبحكم بيئتهم لقبوا بها فقيهاً من أكبر فقهائهم تشبيهاً له بالجاموس في عناده وثباته وقوته ومساغة لبن إناثه .

ولم يكن سبب التسمية هو (قبح منظره) كما ذكر الزبير فالرجل كان وسيماً نحيفاً – أبعد ما يكون عن هيئة الجاموس . إنما المقصود قدراته وصفاته المعنوية وليست الجسدية .

(٢) ٨٥٢ شقير – رواية الزبير باشا .

(٣) مذكرة السيد عبد السلام الخليفه .

بن السيد القطب الواوي التونسي هو أول الوافدين (٤) (٥) (٦) وإن كانت هناك دلائل ترجح أن والده موسى هو أول من حل بدارفور ثم بدار التعايشة .

وليس هناك ما يمنعنا من قبول رواية عشيرة الخليفه بأن جدهم الأكبر قد نزح من تونس . وإن كان تحديد موطنه الأول بجنوب تونس يخفف التناقض بين إدعائهم وإجماع المؤرخين أمثال شقير وهولت . فبلاد الفنري ــ ما بين مملكة برنو وو داي ــ التي أكد الأخيران إنحدارهما منها تلاصق جنوب تونس ، وطرق الحجيج والمهاجرين شرقاً تخترقها ، وأغلب الظن أنها كانت إحدي محطات التوقف للقطب الواوي في طريقه لدارفور . (٧)

مهما يكن من أمر ، فقد حل علي الكرار بدارالتعايشة فقيهاً ومعلماً لدروس القرآن والدين ، وسرعان ما ذاع صيته ، أما لأنه وجد تربة خصبة في تلك الديار لندرة الفقهاء فأصبح هو (القوني) الأول ، أو لتمكنه من علمه فبز منافسيه الآخرين ، فامتدت شهرة خلوته الي القبائل المجاورة ، فطلبه الرزيقات لتعليم أبنائهم ، وهم قبيلة أغني وأكبر ، فشد الرحال إلى الرزيقات وأقام خلوة أخرى في هجليجيه .

---

(٤) راجع نسب الخليفة عبدالله - الملحق (أ) .

(٥) Hill , P12

(٦) الشيخ محمد عوض .

(٧) ربما ساد الإعتقاد بأن علي الكرار هو أول الوافدين لدار التعايشه لأنه إشتهر وعرف في المنطقة وقبره موجود بها . ولكن ميلنا إلى أن موسى هو أول الوافدين يعززه بأن ابنه علي الكرار ليس الوحيد الذي تواجد في المنطقة من العائلة . فمن الثابت أن أخاه الأكبر ــ عمر ــ عاش وتزوج من التعايشة فقد أنجب آدم والد الأمير الشهير عثمان آدم (جانو) وآخرين .

راجع الملحق أ ب أقارب الخليفه المباشرين .

ومذكرة السيد محمد داوؤد الخليفه تبين أن قبر السيد موسى موجود بقرية عداره في دار التعايشه هو ووالده السيد محمد القطب الواوي التونسي . والإحتمال الأقوي هو أما أن محمد القطب الواوي وصل بذريته في أواخر عمره وكان أول الوافدين ، أو أن موسى كان أولهم وهو ما نميل إليه لثبوت وجود قبره أولاً وزواجه من التعايشة .

مذكرة السيد محمد داوؤد الخليفه .

وقبل أن يشد الرحال إلى دار الرزيقات ، وخلال إقامته القصيره تلك غرس علي الكرار بذرتين إنفلق عنهما غرس أينع وتطاول وطبقت شهرته الآفاق . فقد كان أحد مروجي فكرة المهديه (٨) . فالرجل إنحدر من الديار التي لم تنطفيء فيها جذوة الشوق إلى ظهور المهدي المنتظر ، ولم تزل أصداء بن تومرت وممالك الفاطميين تتردد بين جنباتها .

ومنذ البداءه كان الوافد متميزاً عمن حوله ، فقد بشر في مسيده بالطريقة السمانية ، التي كانت المهدية إحدى معتقداتها القوية ، حين كانت الطريقة التجانية هي الغالبة في دارفور . ولم يشغل نفسه بالمواشي ولا الترحال ، بل إنكب على الإرشاد الصوفي وتعليم القرآن مستقراً في مكانه شتاءً وصيفاً .

ثم كان زواجه من التعايشة وإنجابه ستة أنجال ، وهم محمد وأحمد وحامد وزهره وحواء وخادم الله . وقد شب الإبن الأول محمد في خلوة والده وتلقي تعليماً فقهياً واسعاً ، أهله له إجتهاده واستعداده الفطري فاشتهر باسم محمد التقي (٩) فأخذ ينوب عن والده في شئون الخلوة الادارية والتعليمية . وعندما نزح علي الكرار إلى دار الرزيقات لم يترك فراغاً يذكر في المؤسسة التعليمية ، فقد تفوق الإبن على الأب وبزه شهرة ومكانة . تزوج محمد التقي عدة نساء من التعايشة ، الأولى كانت من فرع الجبارات وهي أم النعيم التي رزق منها بعبد الله وهارون وحليمه ، كان لها بدورها أبناء من زوج سابق هما السنوسي وأحمد والسماني ، ثم بأخرى رزق منها بيعقوب .

---

(٨) مذكرة السيد عبد السلام الخليفه .

(٩) في أحاديث الخليفه مع سلاطين ذكر أنه يشير إلى والده بمحمد (التقي) ويبدو أنه لم يكن يستسيغ لقب (تورشين) الذي اشتهر به والده فعلاً .

نمت الخلوة وأقيم مسيد في طبور بأقصي الغرب من دار التعايشة . إكتظ المسيد بالتلاميذ وعشرات من الدبران والمعلمين الذين أديرت شئونهم الإدارية والتعليمية بإنضباط وتسلسل قيادي أشبه بمدرسة عسكرية تخرج منها عدد كبير من الدفعات : فالتعايشة عندما يتحسرون على حرب (السخت) (١٠) . والدماء التي ضاعت فيها هدراً يذكرون أن من بين الضحايا ثلاثين من حفظة القرآن . وبالطبع لم يكونوا كلهم من خريجي مسيد طبور ، ولكنه كان أكبر وأشهر مراكز العلم في دار التعايشة .

لم يكن لمحمد التقي تجارة أو زراعة يتكسب منها . كانت الهبات أهم مصادر دخله لمواجهة نفقات إعاشة الأعداد المتزايدة من التلاميذ وكان هناك مورد آخر هام : ألا وهو كتابة الرقى والتعاويذ والاحجبة و (شوف الخيرة) . ويبدو أن صيت محمد التقى فى هذا المجال فاق شهرته كمعلم ومفسر للشريعة . فالزبير باشا ، والذى لم يذكر الخليفة ولا أسرته بكلمة طيبة قط ، ترامت الى مسامعه خوارق فقيه طبور اثناء حروباته ضد سلطنة دارفور : « أما أبوه محمد آدم فكان يلقب بتورشين أى تور قبيح لقبح منظره وكان عالما بالتنجيم فنال حظوة كبيرة عند التعايشة واشتهر بعلم الغيب والتقوى وكان التعايشة يغزون بلاد السودان فى جنوبهم من وقت لاخر فكان إذا بشرهم بالنصر انتصروا وإذا حذرهم من الغزو ثم غزوا انكسروا حتى صاروا لايغزون غزوة ولا يقدمون على عمل هام إلا بمشورته فجمع بذلك مالاً كثيراً وتزوج بأكثر من امرأة من نساء التعايشة » (١١) .

إن وصف الزبير لمحمد التقي يعني شيئا آخر غير تسطير الاحجبة والرقي . فإن حجب عنه صفة المعلم والفقيه ، فقد أكد سطوته وتأثيره في ديار التعايشة .

و يمكننا أن نمضي لمدى أبعد في توضيح ذلك النفوذ : فحين مثل شيوخ القبيلة وزعماؤها السلطة السياسية التنفيذية والادارية كان محمد التقي ورصفاؤه هم السلطة

---

(١٠) فرح عيسي ص ٣٣ .

(١١) أوراق الزبير باشا .

القضائية العليا . وحتى لا يأخذنا الشطط بعيداً فنحسبهم قضاة متصدرين محاكم دائمة ، أو قادرين على التصدي لقرارات شيوخ القبيلة وزعمائها ، يجدر بنا أن نوضح أنهم كانوا أشبه بمستشارين متطوعين يلجأ اليهم الشيوخ في القضايا المستعصية عندما يستنفنون العرف والقانون القبلي فيتوجهون إلى مفسري الشريعة المنزلة ، لحسم قضايا لا تنتهي في مجتمع تناوشته النزاعات الرعوية والعائلية الشائكة ، وتنازعه تراثه العربي بعصبيته ومثله المعقدة ، وواقعه الافريقي الطلق البسيط .

وبذلك الثقل الذي حمله محمد التقي ، كان لابد له أن يتعرض للخصومة والمكايدة ويبدو أنها كلها نشأت من انحيازه ، بحكم الاقامة والمصاهرة ، لفرع الجبارات .

ومن بين خصوماته العديدة اشتهرت المعركة التى خاضها هو وتلاميذه صداً لمغيرين على دياره في غياب مقاتلي العشيرة ، فوقف يذود عن حياضه بشراسة طيلة يوم كامل حتى وصل المدد ، ومنها ذاع صيت الاغنية الشهيرة :

العلمــــاء والخــــيل بقت دردمـــــة

تورشين مــــــــدواس الامـــــــة (١٢)

ولو توسعنا قليلاً في البحث خارج دائرة ازماته الضيقة في دار التعايشة لنلهث وراء تسارع الاحداث حوله في بحر الغزال ودارفور ، حين تدفق الاف المهاجرين والتجار وثارت عشرات المعارك التي تعالى فيها صوت السلاح الناري المستحدث لأدركنا أنه لم يكن بمقدور محمد التقي أن ينأى عن تلك الاحداث الجسام التي تمور حوله . وهو ما سيؤدي به آخر الامر إلى ترك دار التعايشة نهائياً . ولكنه قبل أن

(١٢) أحاديث مع د . عز الدين المهدي .

يغادرها ترك بصمته الابدية ، بوفاته وتبشيره بالفكرة التي حملها أجداده من الغرب الافريقي ، فتملكت عقول ابنه الاكبر وإخوته وعشيرتهم ، ذلك التملك الذي سدد خطاهم ووجه أقدارهم في بحث لايكل ولا يمل عن بطلهم الموعود .

بالطبع لم يكن تورشين المبشر الوحيد ، فقد أجمع الراصدون لاحداث سودان القرن التاسع عشر ، على أن فكرة إنتظار المهدي كانت قبلاً قد تمكنت ورسخت (١٣) . ولكن حماس محمد التقي لم يفتر أبداً عن رعايتها والترويج لها بين عشيرته وأهله الاقربين ، ولم يكف عن ترديد نبوءته « التعايشه كان أبيتو المهدية هنا - تتعبوا تمشو إليها في ار صباح » فقد روي الشيخ محمد عوض المعاصر لتلك الايام : التعايشة الله خصاهم بالمهدية . تعالوا ارضو لي بها ... تظهروا في ارض التعايشة ... ارضو لي بها ، وقالو احوالها كيف ؟ قالهم العين بالعين والسن بالسن والسراق كان سرق نقطع بالخلاف ، المهدي يجي من دار صباح يلقاه بقت مبني ، يدخل فيه زائر . بشأن الله ، بتعبكو ارضو لي بها ، قالوا الكلام ده في دارنا ماحصل لكن نمشي نشاور سبع ود مجيد - قدوا سبع يوم جو لمحمد ها الفقير، الكلام ده في يوم في دارنا ما حصل انحنا بخيلنا ده بنغير فقال لهم تقتلو الذمه الحرمها الله ؟ بتجيبوا حق الناس تأكلوه بالحرام ؟ قالوا الحرام انحنا مكان دايرنه ما بنخليهو ... والكلام ده في دارنا ما حصل . قال لهم التعايشة الله خصاكم بالمهدية تعالوا القايم معاي خلي يقوم . المهدي يظهر هناك في جزيرة بين بحرين ... »

إذن لم يكن من المستغرب أن يكون أحد الذين تنفسوا الفكرة وملأت عليهم صحوهم وأحلامهم الابن الاكبر لمحمد التقي - عبد الله - الذي دخل التاريخ باسم الخليفة عبد الله التعايشي .

---

(١٣) أوراق يوسف ميخائيل (تحقيق صالح محمد نور) .

(١٤) القدال - محمد أحمد المهدي - لوحة لثائر سوداني ١٩٥٠ / ١٩٨٥م ص .

٣

الصبا

في مثل تلك الازمنة الحبلى بالاحداث وشيكة التفجر ، ولد بطل هذه السيرة ، عبدالله (١) . فعام ١٨٤٦م كان من الاعوام التي شهدت غروب شمس سلطنة دارفور، بعد قرون طويلة من القوة والإستقرار ، كانت نتاجاً طبيعياً للصيغة اللامركزية المثالية التي توصلت اليها لإدارة تلك الاصقاع بسكانها المتنافرين .

فقد صبرت السلطنة وصابرت على الاستفزاز الموجه اليها من الشرق . ومنذ أن كتب السلطان محمد الفضل لمحمد علي باشا الكبير مستغرباً ببراءة اليمة عما يريده منهم « إنكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم هل بلغكم أننا كفار وجب لكم قتالنا وإبيح ضرب الجزيه علينا .... أو ورد دليل لك من الله تجد فيه ملكك ، أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك رباً قوياً ولنا رباً ضعيفا ... الحمد لله نحن مسلمون وما نحن بكافرين . ..أما علمت بأن عندنا العباد الزهاد والاقطاب الاولياء الصالحين ... الله يكفي شر الظالمين . »

فلا هو ولا أحفاده أدركوا أن القوة هي الحق - وأن الخرطوم مصممة على ضمهم لها لأسباب لا تمت بصلة للشريعة والمثل الاسلامية النبيلة كما عرفوها هم .

---

(١) تضاربت الاقوال في مكان مولده فرتشارد هل يذكرأان مولده كان بقرية ترده والمؤرخ محمد عبد الرحيم يذكر أنه ولد بقرية السيل علي مسيرة اربعة ايام بالاقدام من الكلكة .
(معجم الشخصيات ـ محمد عبد الرحيم ـ دار الوثائق المركزية .)
RICHARD HILL. BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF THE ANGLO - EGUPTIAN SUDAN . OXFORD .1953. P .23`.

وإلى الجنوب تآكلت حدودهم الجنوبية مع بحر الغزال بعد تدفق التجار المغامرين (بكبانياتهم) القوية المعززة بالسلاح الناري الحديث منذرة بمعالم التغيير العنيف المقبل . .وما بين السلطنة والقوة الجديدة في الجنوب يمتد حزام البقارة بما في ذلك دار التعايشة ، وقد تزايدت مغامراتهم الفرديه وتعاظمت اعدادهم المتجهة جنوباً إلى ديار الجانقي .

ومنذ الصغر تميز الطفل عن أقرانه . ففي صباه المبكر كان يكثر من التأمل وحيداً ساهماً (٢) لساعات طوال ، عازفاً عن مشاركة أقرانه ألعاب الطفولة . وتطورت العزلة بعد قليل إلى نوع من العصيان والتمرد ، فكما تجنب الألعاب والنقارة تهرب أيضاً من واجباته . وهناك عدة أقاصيص تروى عن طفولته ، رغم ما يشوبها من شكوك بأنها نسجت في الغالب مؤخراً وبعد أن بلغ ما بلغ من مكانة ، إلا أنها تدل على أنه كان طفلاً صعباً غير مطيع . وتروي (٣) إحدى تلك الأقاصيص أن لبوة إختطفته وهو صغير وحملته بين أسنانها إلى الغابة المجاورة ثم القت به سالماً على مشارف القرية في صبيحة اليوم التالي .

وقصة أخرى كانت عن ضجيج الصبية من عبدالله ، وهو لا يؤدي نصيبه من الواجبات المفروضة عليهم ، مثل جمع حطب الوقود وتكسيره وجلب الماء للمسيد . وعندما وصلت الشكوي لمسامع والده زجره فما كان من عبد الله إلا أن غاب فترة في الغابة المجاوره ثم عاد حاملاً على كتفه شجرة ضخمة ألقاها أمامهم . وأمام دهشة الحاضرين صاح والده بهم : (هالتعايشة أنا ما هديتكو من الولد ده - البلد من مشارقها إلى مغاربها تدري بيه . . . هو راجل بخيت وبخيت البحضر زمنه) (٤) .

---

* مأخوذة من كلمة (كومبانيه) الإيطاليه Compagnea أي شركه وكانت أبرز معالمها زريبة ضخمة من الشوك تحيط بالمباني والبضاعة .

(٢) مذكرة عبد السلام الخليفه .

(٣) مخطوط الأنصاري ــ سيف الموحدين في أعناق المجاهدين ــ ص ٣٥ .

(٤) فرح عيسي ص ٨٣ .

وكما سلف ، أجمعت الروايات المحلية المتداولة بين التعايشة على غرابة أطواره وذكائه وتمرده وكسله . ولكن يبدو أن الروايات مضت إلى مدى أبعد في وصف طفولته الصعبة ، ثم تلقفها المؤرخون لينسجوا منها أكنوبة كبرى ، كانت من أسلحتهم في حملتهم الاعلامية الموجهة ضد الصبي الذي أصبح الخليفه عبدالله فيما بعد : ألا وهي أن الخليفه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، بل كان يجد صعوبة بالغة (٥) في حفظ وترديد الآيات والسور القرآنية القصيرة أثناء الصلاة وهو خليفة يؤم المصلين ، (٦) السور القصيرة والتي يحفظها عن ظهر قلب ملايين المسلمين ، حتى الذين لا يتحدثون العربية ، بينما شهد الجميع بفصاحته .

ويبدو أن تلك الأكنوبة نشأت وتضخمت على النحو التالي : من بين أطوار الصبي الغريبة المعروفة أنه كان كثير التامل والصمت . بل أن القصتين المتداولتين كلتيهما عن اختطاف اللبوة له كان سببها أصلاً ذهابه وحيداً للغابة وقضاؤه كل النهار جاثماً يرقب اللبوة وأشبالها (٧) ولكن التأمل الطويل والإستغراق فيه للمدى الذي يجعله يبدو كأنه في عالم آخر بعيداً عن جلسائه وأقرانه ، كان لا يحدث فقط خلال أوقات فراغه ، بل كان يحدث أيضاً أثناء تلقيه للدروس في مسيد والده فعبدالسلام الخليفه يحدثنا بأنه :

(لم يكن يتبع طريقة الحيران بالحفظ باللوح ، فقد كان شديد العزوف عن القراءة المقرونة بمسك اللوح ...) .

ويبدو أن تلك هي كل الحقيقة في قصة أمية الخليفة (٨) وهي عدم الحماس والإنكباب علي دروس المسيد . ولئن وجدت تلك الأكنوبة رواجاً طوال الدهور المتعاقبة منذ انقضاء عهده ، فيجب علينا أن نوطد انفسنا على مواجهة العديد من تلك الادعاءات

(٥) FATHER OHRWALDER , TEN YEARS OF CAPTIVTY IN MAHD CAMP.

(٦) شقير ص ٥٨٣ .

(٧) مخطوط الأنصاري ص ٣٥ .

(٨) عبد السلام الخليفه .

الساذجة ، فمثلها سيصادفنا كثيراً طوال مراحل حياته الحافلة . فهل يعقل أن الصبي الذي نشأ في خلوة ومسجد والده ، والذي رافق المهدي طوال سنينه الحافلة بالتفقه والمواعظ ونسخ المنشورات والتشريع ، والرجل الثاني الذي إختاره المهدي ليؤم المصلين في غيابه ... أن يكون أمياً ؟ ولو تركنا قرائن الأحوال جانباً وسعينا لدليل قاطع ينتزع من كبار مروجي الفكره فلن نعدمه (٩) . ففي زلة من زلاتهم أدلوا بالحقيقه كما هي : *

* * *

(جلد على عظم) (١٠) هكذا وصفه أو هروِلدر ، فقد كان فتاناً بالغ النحافة في صباه وشبابه المبكر . إلا أنه كان متماسك الاعضاء ، صلب العضلات . بلونه القمحي (١١) وشعره المرسل . كان الفتي وسيماً بكل المقاييس .

« وجهه ذو تقاطيع عربية صميمة يتوسطه أنف دقيق وفم حسن التكوين وتحيط به لحية خفيفة على العارضين تتكاثف عند الذقن يشرق وجهه بإبتسامة دائمة عندما يتحدث، كاشفاً عن بريق أسنانه البيض اللامعة « ومع قوته البدنية وصحة جسده عانى من مرض في طفولته كاد أن يودي بحياته عند اصابته بالجدري الذي ترك آثاراً دائمة على وجهه » (١٢) .

---

(٩) المصدر السابق .

(١٠) SLATIN, P . 285..

(١١) أحاديث مع الحاجه زينب بت الأمير محمود جي الأمراء ١٩٧١م .

(١٢) Father Ohrwalder

* بعد أن أصبح مفتش عام السودان كان سلاطين يزور مفتش أم درمان ومنزله هو جزء من بيت الخليفة (المتحف حالياً) وكان يذكر لهم دائماً وهو يؤمئ إلى الفضاء الواقع شمال المنزل بأن أسوأ لحظات حياته كانت عندما يجلس الخليفة على عنقريبه وهو يتصفح الصحف المصرية التي يهربها له عملائه . فقد كان سلاطين يخشى أن تبرز أحد الصحف أخباره ومراسلاته مع ونجت وقد كانت تطفح بأخبار السودان وأسرى الخليفة .
ليس هذا حال من كان أمياً .

ويبد أن الفتى تخلى رويداً رويداً عن عزلته وصعوبة مراسه عندما تقدمت به سنوات الصبا وأشرف على مرحلة الرجولة ، فقد التف حوله عدد كبير من الأقران ارتبطوا بصداقات حميمه إمتدت إلى نهاية العمر واتسمت بالولاء الصادق ، وكان لها شأواً بعيداً في صنع الأحداث في السنوات الحافلة التي تلت .

وفي تلك الحقبة من حياته ، وبحكم تقارب السن والصلة المباشرة كان أقرب الأقربين له هو أخوه يعقوب (١٣) . كان الود خالصاً بين الأخوين . لم يفسده تباين الشخصيتين . بل كمل نقائض كل منهما . فقد كان يعقوب هو الصبي المطيع ، لين العريكة سهل المراس المنخرط بجدية في المسيد منتبهاً لدروسه قائماً بواجباته على الوجه الأكمل مما رشحه ، وهو الأصغر ، لينوب عن والده في إدارة شئون المسيد عند غياب الاخير . وعكس يعقوب كان أخوه يوسف رفيق عبدالله في التمرد وصعوبة الإنقياد .

(١٣) الامير يعقوب فيما بعد ، والرجل الثاني فعلياً طوال فترة حكم الخليفه . ولد عام ١٨٥٥ ونشأ في مسيد والده بطبور حيث هيأه والده ليخلفه في واجباته الدينيه . اشتهر بالثقافه الدينيه والدماثه طوال حياته . بايع المهدي عندما جاء إلى أبا ورافقه إلى جبال النوبة ومباشرة عينه شقيقه كنائب له في قيادة الراية الزرقاء – ثم أصبح أميرها بعد تعيين الخلفاء . وذلك الموقع مكنه من اداء دور رئيسي في كل معارك المهدية الاولى – حملتي راشد والشلالي وحصار الابيض ومعركة شيكان وأخيراً حصار الخرطوم وسقوطها .

قال سلاطين « الويل لمن يغضب عليه الامير يعقوب » فبدهائه وسلطاته وهي أشبه بسلطات رئيس الوزراء أشرف علي كل صغيرة وكبيرة في الدولة من شئون الجيش حتى توثيق وتسجيل الاراضي . واتهم بأنه كان المهندس الذي انشأ حكم صفوة التعايشة . عانى في اواخر ايامه من منافسة خفيه من شيخ الدين بن الخليفه الذي كان يدعو إلى مرونة أكثر في التعامل مع الدول الاوربية وكان معارضاً للعصبيه القبلية للتعايشة . ويتردد انه كان صاحب الاقتراح بخوض المعركة الاخيرة أمام جيش كتشنر بعيداً عن النيل والانسحاب غرباً إلى كردفان . على الرغم من هدوئه وإتزانه المعروف ، إلا أنه قاد هجوماً متهوراً في معركة كرري وقاتل بشجاعة حتى لقي مصرعه ، ومنذ تلك اللحظة فقد الخليفة كل اهتمام بالمعركة حين اصيب بصدمة عنيفة عندما علم بمصرع شقيقه ، كما ذكر بابكر بدري (راجع كرري ص ٢٧٥) .

بخلاف أشقائه كان أقاربه اللصيقون هم - أبناء عمه أحمد وهم محمود (١٤) وابراهيم (١٥) الخليل وعبد الرحمن (١٦) الضرير واسماعيل (١٧) وإن كان هؤلاء أصغر منه كثيراً . إلا أن صلته بهم كانت وثيقه للغايه ، بل كان يتولى شئونهم منذ الصغر ويعتبر مربيهم كما كشفت المراسلات بينه وبين محمود مؤخراً .

ومن الطبيعي أن تأثره كان أعظم بمن كانوا أكبر سناً من اقربائه واترابه . ومن هؤلاء ، اسمان يسطعان من بين زحام الشخصيات ، التي احاطت بعبدالله خلال حياته الحافلة .

---

(١٤) الأمير محمود ود احمد فيما بعد (١٨٦٥ ـ ١٩٠٦) أمضى طفولته في مسيد طبور حيث نشأ في كنف عمه محمد التقي . أحضره الخليفه إلى امدرمان وبمجرد بلوغه سن الرجولة عينه عاملاً على كردفان ثم على دارفور خلفاً لعثمان جانو بعد وفاة الاخير . واستدعاه الخليفه ليقود جيشاً لمواجهة كتشنر حيث هزمه الاخير في معركة عطبره . التصقت باسمه مجزرة المتمة . إلا أن الوثائق توضح أنه حاول أن يؤجل الكارثه ويتجنبها ولكن عدة عوامل اجبرته اخيراً علي اقتحام المتمة ، أهمها ضغوط الخليفة واقتراب الجيش الغازي وفقدان السيطرة علي المجموعات المتنافرة من جيشه . قبل التصاق اسمه بمجزرة المتمة اشتهر باللين واللطف حتى كان الكارة يسمونه محمود عسل عندما كان عاملاً عليهم . أسر في معركة عطبرة عام ١٨٩٧ وتوفي بالأسر في رشيد بمصر - زلفو كرري ص ٢٢٨ .

محمود عبدالله رسالة ماجستير حملة الأمير محمود إلى الشمال ص ٦١ .

(١٥) ابراهيم الخليل (١٨٦٧ - ١٨٩٨) مثل شقيقه محمود لحق بالخليفة بأمدرمان . قاد حملات ناجحة في جبال النوبة لقمع تمرد نشب هناك وهو لم يتجاوز العشرين . تولى قيادة جيش الكارة وهو بقايا جهادية حمدان أبوعنجة من جنود الإحتلال السابقين . كان من المنادين بالدفاع في السبلوكة ثم نادى بالهجوم الليلي في موقعة كرري وتغلب رأي منافسه عثمان شيخ الدين وانتصر الرأي القائل بالهجوم النهاري الذي كان هو من أوائل ضحاياه . كرري ص ٢٥٩ .

(١٦) كان ضريراً وعرفت عنه ميتته الشهيرة فى معركة كررى عندما طلب من تابعه ان يوجه جواده نحو زريبة كتشنر ثم اطلق العنان لجواده شاهراً حربته حتى أردي قتيلاً .

(١٧) كان اصغرهم اسماعيل ولذا لم يلعب دوراً رئيسياً في أحداث المهدية إلا أنه كان أحد المصادر الرئيسية لاحداث المهدية بعد سقوطها .

فابن خاله ، يونس الدكيم ، كان من أشهر صيادى الافيال على الاطلاق ، وكثيراً ما تطايرت الأشعار والأغاني لتخليد مباريات الصيد بين يونس وغريمه الشهير حمدان أبوعنجة .

ويونس كان يكبر عبد الله بعدة سنوات لا يدري أحد بالضبط كم عددها ، فالرجل كان من معمرى السودان المشاهير . ولم يكن من خريجي مسيد محمد التقي ، يغلب على الظن أنه درس فى خلوة والده علي الكرار .

أما حمدان فسنتعرض له في مكان آخر لأنه يستحق حيزاً أوسع ، فربما كان ارتباطه بالزبير هو الذي قاد خطى عبدالله إليه ، ظناً أنه الموعود الذي طال انتظاره ، فلم يكن فؤاده يرنو للعاج الأبيض ، بل للرايات السود : رايات المهدى المنتظر .

* * *

نبتت لحيه الصبي ، وأشرف على مرحلة الرجولة فتلفت حوله . أين هو من أمانيه العراض ، وأين هو من مهديه المنتظر الذي ظل والده يغذى خيالهم به لسنوات طوال . لقد كان موقعهم الدينى والتعليمى هو أساس مكانتهم المرموقة فى دار التعايشة ، فلم يكونوا من أثرياء القوم ، ولا من زعماء بطون القبيلة . وحتى مكانة العائلة الدينية ، أين هو منها ؟ فبينما انكب شقيقاه الأصغران ، يعقوب والسمانى ، على تلقي العلم وتجويده وكرسا جهديهما في مساعدة والدهما في إدارة شئون المسيد وأخذا مكانتهم في خلافة والدهما ، كان هو بمنأى عن كل ذلك . بل أنه حتى ذلك الحين (لم يأخذ الطريقة) التي أخذها مئات آخرون . ولعل الرواية الشهيرة المتداولة بين التعايشة حتى الآن حول إجابة الوالد عندما جاءه ابنه سائلا أن (يعطيه الطريقة) فرفض الوالد قائلا قولته الشهيرة (انت طريقتك مختلفة وشيخك مختلف) قد جرت على النحو التالي كما وصفها الانصاري (١٨) .

---

(١٨) الأمير يونس الدكيم فيما بعد (١٨١٦ ـ ١٩٣٦) ابن خال الخليفة ولايدري أحد متي ولد ولكن المعروف في امدرمان أنه عمر حتي بلغ المائة وعشرين عاماً . كان أشهر صيادي الأفيال

« وابنه عبدالله عاد القرآن على والده سبع عودات ولم يحفظ ، فأراد أن يهاجر لجهة البركة للفقيه عبدالنبى أو غيره طالباً القراءات ، فمنعه والده . فأراد أن يقرأ كما كان على والده وقال علمنى العلم فأبى ، وقال له ايضا اعطني العهد أى الطريقة فأبى له ، ثم قال يا ابتاه أذن لى أن أهاجر لأى بلد أو شيخ ترضاه فقال له لا أرضى لك شيئا ، إذا كنت راضيا بالغير فاولى أنا . ولكن لي فيك نظرة ومعي فيك خبر . تسودني إنشاء الله وتسود كل معتبر بالدين المحض الخالص بلا عكر .. وبنى له خلوة يعتكف فيها إن نام أو سهر . فقال الخليفة علمنى أى اسم أدخل الخلوة فقال اعمل ما شئت إن شئت قم وإن شئت نم ، وقال الخليفة لوالده صرح لى أحضر معكم الدرس فمنعه ففعل فى خلوته ، فلما طال به المطال ، ضاق به الحال ، وسمع والده وهو في خلوته يقرأ في علم التوحيد ، فخرج وجلس من جملة الطلبة فقال له أبوه قم وإلا تركنا التعليم لأجلك وذنب الطلاب عليك فقام وهو مكسور الخاطر باكى العينين وأتاه والده بعد يومين وقال أتظن أنى أريد ضرك بل أريد لك الخير وربما قرب إنك ستجد سلطانك و مشاهدة برهانك .. (١٩)

لو نحينا الكرامات والأساطير المتداولة حول صبا الخليفه جانباً مغلبين سوء الظن بان أغلبها قد نسج مؤخراً ، بعد أن بلغ الفتي ما بلغه من مكانة ، سنجد أن محور صباه وشبابه الباكر قد دار في عدة دوائر : أولها رفضه لواقعه ، ولئن تميزت اسرته عن المجتمع البدوي بأنها عائلة علم ودين ، فقد تميز هو بدوره عن اسرته وأدرك مبكراً أن طموحه وأحلامه لن تتحقق باتباعه « مهنة » العائلة .

= من التعايشة . إنضم للخليفه في جبل قدير ومنها اشترك في معارك الثورة الاولى حتى تولى الخليفة فأسند إليه قيادة عدة حملات ومناصب حتى تولى عمال دنقلا . عزله الخليفه عدة مرات واستدعاه لأم درمان (ليلزم الفروه) لفشله في بعض المهام ولتصاعد الشكوى منه من السكان . اشترك في معركة كرري وهاجر مع الخليفة إلى الغرب حيث جرح في معركة ام دبيكرات ، بعدها عمر طويلاً في فترة الحكم الثنائي وتوفي عام ١٩٣٦م .

(١٩) الأنصاري ص ١٣ .

ومن ناحية أخرى يجب ألا نسترسل ونغالي في وصف صباه المتمرد ليمحو كل أثر للمسيد والخلوة في تكوين شخصيته . فجو الإنضباط العسكري في الخلاوى ، وتسلسل المسئوليات والرتب غرست فيه قدرات تنظيمية مبكرة . وإكباره وإحترامه للعلماء ، الذين لم يوفق في أن يكون واحداً منهم ، وولعه بتطبيق نصوص الشرع ، لازماه إلى نهاية حياته .

ولا بد أنه قرأ أو استمع بشغف لأدب المهدية ، فقد كان رائجاً للغاية ، وكما ذكر له والده « شمر ساعدك وافده بنفسك » . فسترون حرباً وقتلاً وضرباً وحسداً وسباً ، شيئاً تكاد تشيب له الاطفال ويزلزل الجبال (٢٠) .

فالأمر لم يكن كله تعبداً وتهجداً وتصوفاً فهناك أيضاً أعمال تنجز ، ودول تنشأ ، وجيوش تعبأ ومعارك يخاض غمارها . وهنا كان من الطبيعي أن يقصد من ملأ اسمه الآفاق ، وسارت الركبان بنبأ ثروته العظيمة وجيوشه المتنقله من نصر إلى نصر .. إلى الزبير ود رحمه .

(٢٠) الأنصاري ص ١٧ .

٤

عبد الله ... والباشا

كالبثور في وجه زنجية حسناء ، تناثرت زرائب التجار وحوانيتهم في غابات بحر الغزال الخضر ، وكم سعدوا بارتياد الاقليم الغني المترامي الاطراف بعد أن هرولوا هاربين من مجرى النيل الرئيسي ، وقد توالت عليهم الضربات من قبائل الشلك ثم حاميات الحكومه وبواخرها النيلية .

كان التجار الأوربيين (١) هم الرواد الأوائل لتلك الزرائب والكبانيات وقد اكتظت بما اكتنزته داخلها من أطنان العاج الأبيض من سن الفيل ، والعاج الأسود من الأجساد البشريه ، وتضخمت اسماء اصحابها أمثال اما بيل ودي (٢) بونو وملزاك ، ثم تلاهم الأبناء والمصريون ومنهم غطاس الذي سميت بلدة جور غطاس باسمه (٣) وقناوي صاحب زريبا جور كيانقو ، وأبو عموري صاحب مشروع الرق .

وإذا ألقينا بنظرة سريعة إلى خريطة بحر الغزال لرأينا كم كان توغلهم سريعاً ولأحسسنا كم كانت معبره تلك الكلمات الشهيرة التي اطلقها سلطان (مركوك) وهو يزفر زفرة حرى ، مومئاً إلى الزي الرسمي لقوات الإحتلال ... « طربوشك أحمر لأنه ملطخ بدماء أبنائنا (٤) . »

---

(١) شقير ص ٥٥٨ .

(٢) سليمان محمد سليمان ـ حمدان أبو عنجه ـ مخطوط ص ١٤ .

(٣) التونج الحالية .

(٤) اليوز باشي طبيب أمين المعلوف ـ إحتلال بحر الغزال ١٩٠٥ ـ مجلة الجمعيه المصريه للدراسات التاريخيه مايو ١٩٥٢ ص ٢١١ .

كان البحارة والجلابة ، كما أطلق على التجار ومعاونيهم من قبائل السودان الشمالية ، في ذيل القائمة . ولكنهم تصدروها بقدرة قادر حين توجهت نحوهم آلة الدعاية الأوربية ومن خلفها جمعية محاربة الرق ، فنصب الأوربيون أنفسهم آلهة لتنظيم شئون العباد ، ونقلهم إلى مشارف الحضارة المسيحية مهما كان الثمن ، حتى لو كان بالإبادة .

ولم تكن هناك ذريعة أفضل لاستلاب القارة العذراء من دعوى محاربة الرق . ومحظوظ ذلك الذي وضع يده علي تلك الذريعة فآخرون ممن لم تسعفهم الحيلة كشفوا عن وجه العدوان بلا مواربة ، ولم يترددوا لحظة واحدة في تحطيم ممالك الزولو والأشانتي وحصد صفوف الإمبيز (٥) بنيران الرشاشات وهم يزودون عن أراضيهم أمام أطماع شركة سيسل رودس .

ولم توجه الدعاية الأوربية سمومها ولم تصب مرماها كما أصابت شخصية الزبير باشا . فقد أشاعوا أنه أشهر تاجر رقيق في أفريقيا « وهو الذي جعل (٦) إقليم بحر الغزال حصيداً .. واستلب قبائل وشعوباً بأكملها وصدرهم كقطعان الماشية عبر طريق تناثرت على طوله الجماجم والهياكل العظمية من ضحاياه . »

وقد غابت الحقيقة ودفنت أمام ذلك الطوفان من القصص المختلقة والإتهامات التي حفل بها أدب القرن التاسع عشر من مؤلفات ومجلات وصحف وكانت شيئاً مختلفاً تماماً :

---

(٥) الوحدات العسكريه لقبائل الزولو .

(٦) أوراق الزبير باشا ــ مجموعه خاصه بالمؤلف أهدي منها نسخه لمكتبه جامعة الخرطوم .

JESSI, ROMELO EXPLORATION AND ADVENTURES, LONDON 1892 P. 221=

أولاً : لم يكن الزبير ولا البحارة من قبائل السودان الشمالية الرواد الأوائل في إنشاء تلك المستعمرات التجارية المسماة بالكبانيات ، ولا كانت اليد العليا لهم في البداية ، بل كانت للأوربيين والأقباط والمصريين من الأسماء التي ذكرناها سالفاً . والذين انسحبوا منها بعد أن نالوا التعويضات السخية من الحكومة .

ثانياً : الحقيقة فيما يتعلق بالزبير ببساطة واختصار هي أن الزبير إقتنى « وإشترى » ولكنه لم « يبع » .

وفيما يتعلق بالجزء الأول ــ الشراء ــ هناك ادلة قوية تشير إلى أن الجزء الأعظم من الرقيق الذي اقتناه الزبير ، أو غيره ، كان ناتجاً لغارات شنها السلاطين المحليون من القبائل النيليه ضد القبائل الأخرى ممن يدعونهم بالفرتيت ولم يكفوا عن شنها منذ أقدم العهود وحتي أوائل هذا القرن (٧) . ففي البداية كانت الكبانيات تقايض السلاطين في العاج وريش النعام والمنتجات المحلية . ثم تطورت إلى مقايضتهم بالرقيق من الفرتيت حين أدركوا أنها السلعة المرغوبة المجزية ، مما دفعهم بدورهم إلى التوسع في شن الغارات على القبائل الأخرى واستلابها (٨) .

أما أنه لم (يبع) فأمر بديهي ، فهو لو باع لما تكدس لديه من السود تلك الأعداد الضخمة التي أمست جيوشاً جرارة حاربت السلاطين المناوئين له في بحر الغزال حتي خضعت له وأصبحت مملكته الخاصة ، ثم واجهت جيوش سلطنة دارفور

---

(٧) حتي عام ١٩٤٠ حين كتب برتشارد بحثه المفصل عن قبيلة النوير ذكر بأنهم يستخدمون كلمة جانقي عندما يتحدثون عن القبائل التي اعتادوا الإغارة عليها وإسترقاق أفرادها وأن الصبية ينتظرون ذلك اليوم الذي يسمح لهم فيه باصطحاب الكبار لتلك الغزوات بفارغ الصبر وكل قبائل النوير كانت تغزو الجانقي سنوياً .

(٨) H. C. JACKSON , WHITE IVORY & BLACK IVORY P13 .

في معارك كبرى ، كمعارك دارا ومنواشي التي خاض غمارها عشرات من الالوف من المحاربين ، وأصبح جنوده المسمين بالبازنجر عماداً أساسياً في حاميات الحكومة في مشارق البلاد ومغاربها ، بل أن جزءاً يسيراً منهم بقيادة رابح الزبير (٩) إنفصل عنهم بعد نفي الزبير وسعا ونجح في إنشاء دولة مستقلة في وسط أفريقيا .

ولا شك أن دهاء الزبير السياسي والتجاري كان يدعمه بموهبة قتالية طبيعية ، فقد كان قائداً عسكرياً محنكاً . فحتي غردون ألد أعدائه ، لم يسعه إلا أن يستدل بها : « التوقيت المناسب للهجوم هو دائماً الفجر أو قبيله .. تلك كانت دائماً تكتيكات الزبير .. (١٠) ويبدو أن تلك التكتيكات تركز نجاحها في إدراكه لمزايا تجميع نيران الأسلحة واستخدامها ككتل نارية مطوراً النظرة السائدة للبندقية كسلاح فردي تنصب طلقاته العشوائية هنا وهناك .

أما الأحداث التي عجلت باقتحام الزبير لدارفور ، وبالتالي إقترابه من ديار عبدالله ، فقد سارت على النحو التالي :ـ

أدرك الزبير أن الطريق النهري المعهود طريق طويل محفوف بالمخاطر فصمم على فتح الطريق البري عبر كردفان ودارفور لتصريف منتجات الإقليم الغني وإرسالها لمركز التجارة في الخرطوم ، فعقد معاهدات مع شيوخ القبائل لضمان سلامة الطريق وعدم تعرضهم للقوافل ، وعندما أخل الرزيقات بالمعاهدة سير نحوهم جيوشه ، فكانت تلك المعارك الطاحنه والتي تطورت إلى صدام مع السلطان إبراهيم نفسه ،

---

(٩) جمال محمد أحمد ــ سالي فوحمر ص ٢ .

(١٠) GORDON , CHARLES , JOURNALS VOL .I P. 113..

وذلك يعتبر أمراً طبيعياً فالسلطان كان يعتبر الرزيقات من رعاياه ، ومنطقة شاكا التي احتلها الزبير كانت جزء لا يتجزأ من سلطنته . وعندما سقط السلطان إبراهيم قتيلاً في معركة منواشي عام ١٨٧٣م بسط الزبير سلطانه على دارفور بالإضافة إلى بحر الغزال .

لقد تعرضنا لقصة الزبير في مجال آخر وسردها يستنفذ مجلدات ضخمة لا تطيقها هذه العجالة (١١) التي نتناول فيها تلك الأحداث . ولكن مايعنينا هنا أن عبدالله عندما توجه للزبير لم يتوجه لتاجر رقيق ، أو لكبير مصدري العاج وريش النعام ، بل توجه لمؤسس الممالك وقائد الجيوش المنتصرة « الذي لم تهزم رايته أبداً » وأقرب الشخصيات المعاصرة لبطل أحلامه . ومن بين جنود الزبير المتمرسين الذين اشتركوا في معاركه العديدة منذ أن كانت إشتباكات صغيرة مع السلاطين المحليين ، كان هناك صائد الأفيال الشهير حمدان أبوعنجة .

في مسيد علي الكرار نشأ حمدان وترعرع . فقد وفد والده الفقيه أحمد من بلاد البرقو في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ونزل ضيفاً في مسيد علي الكرار ولازمه بقية حياته . وقد زوج علي الكرار لضيفه إحدى الفتيات المنضلاويات فرزق منها بحمدان حوالي عام ١٨٢٠ ، وكان أترابه محمد التقي وأخوه أحمد . وعند وفاة الفقيه أحمد تزوجت والدته برجل آخر وزاد إلتصاق الفتى بأسرة عبدالله ، فتبناه علي الكرار وأصبح كأحد أبنائه . وقد أكمل تعليمه الديني بنجاح من المسيد وعرف عنه التقوى ودماثة الأخلاق . (١٢)

---

(١١) سليمان محمد سليمان ـ مخطوط حمدان أبو عنجه . إستند المؤلف أساساً على رواية الأمير إسماعيل أحمد ص ٥ .

(١٢) SLATIN P. 254 ..

ومنذ صباه المبكر أشتهر ، حمدان بالقوة البدنية الخارقة ، فرغم قصر قامته كان مفتول العضلات خفيف الحركة بارعاً في استخدام الحربة ، مما أهله ليتبوأ مكانته المرموقة بين قناصي الأفيال ، وكم كانت جماهير المعجبين تستمع بشغف إلى أنباء منافسة الغريمين الشهيرين ــ حمدان ويونس . (١٣)

ولكن امجاد (الدرمته) لم تشبع طموح الفتى ، فسرعان ما قاده لارتياد المعالي جنوباً ، إلى الزرائب والكبانيات ، مقاتلاً ومتاجراً في صفوف الزبير ، شاقاً طريقه إلى الشهره بسنان حربته الطويلة ، التي استبدلها بالبندقية عندما أصبح قائداً لمجموعة من البازنجر ، فحملته حملات الزبير غرباً إلى أقاصي أدغال بحر الغزال وأفريقيا الوسطى ، ثم انثنت به شمالاً ، ليشارك في اشتباكات الزبير مع الرزيقات ، وقد وقع حمدان أسيراً في يد مادبو زعيم الرزيقات ، وقاسى الامرين خلال فترة الاسر ، واطلق سراحه فكر راجعا إلى دار التعايشة .

في هذه المرة ، لم يأسر الأسماع في وصف ضخامة الفيل وشراسته وطول أنيابه ، بل حلق بهم بعيداً ، فحدثهم في ليالي السمر الطويلة عن جيوش جرارة وآلاف الاسلحة النارية التي تضاهي أصواتها دوي الرعد ، وعن قوافل تمتد إلى مد البصر محملة بالعاج الثقيل ، وعن صانع تلك الأمجاد ، ملك بحر الغزال ودارفور غير المتوج . كان عبدالله أكثر انبهاراً بمغامرات حمدان ، فقد كان من أقرب الناس إليه . ولا بد أنه أكثر في السؤال عن الزبير ، وعن صفاته وعن أصله المنحدر من (دار صباح) فقد حدثهم والدهم عن انحدار بطلهم الموعود من (جزيره بين بحرين (١٣) وكانت أنظارهم ترنو شرقاً لوفوده إليهم من أرض النيل « لأنه من المعلوم عندنا أن أي انسان يحضر من البحر كأنه جاء من بيت المقدس أو مكة المكرمة ، كون أن لسان أهل البحر طلق ورطب . وجلدهم أملس وعند عموم أهل كردفان الجسم خشن واللسان ثقيل . » (١٤) .

---

(١٣) الشيخ محمد عوض ــ شريط مسجل .

(١٤) يوسف ميخائيل ــ تحقيق مذكرات يوسف ميخائيل (رسالة دكتوراه) ص ٢٣ .

حزم الفتى أمره ، فقد عثر أخيراً على مهديه الذي طال انتظاره له ، فشد الرحال إلى معسكر الزبير .

تضاربت الأقوال حول مقابلة عبد الله مع الزبير . ففي مذكرات الزبير امتدت العلاقه إلى أكثر من عامين ، أي بين عام ١٨٧٣م أثناء حربه مع الرزيقات وحتي أواخر عام ١٨٧٥م بعد مقتل السلطان هارون ومغادرة الزبير لدارفور وتراوحت بين رغبة الأخير في قتله ، ثم العفو عنه واقطاعه الأراضي ثم الخلاف والذم ، فحسب رواية الزبير :

« وكان الرزيقات قد استخدموا فقيهاً من فقهاء التعايشة يقال له عبدالله ود محمد آدم تورشين ليقرأ لهم الأسماء في خلوته لعلها تقبض على سلاحي فلا يطلق ناره فى ساحة الحرب وقد تعهدوا له ببقرة من كل مراح فوقع أسيراً فى يدى فى حلة السروج بين شكا وداره فأمرت بقتله . وكان معى ١٢ عالما من علماء الشرع وقد حلفتهم على القرآن الشريف أنهم إذا رأوا فى أحكامى إعوجاجاً عن الشرع ينبهونى اليه فلما أمرت بقتله اعترضنى العلماء وقالوا أن الشرع لا يسمح لك بقتل أسير الحرب فضلا أن السياسة تنكر عليك قتل رجل يعتقد الناس صلاحه لأنك إن قتلته نفرت القبائل منك وعدتك رجلاً ظالماً مخيفاً ، فامتنعت عن قتله » .

بينما رواية عشيرة الخليفة تقدم (١٥) لنا صورة مختلفة (١٦) ملخصها أن الزبير سأل مرافقيه من العلماء عمن تبقى من أعلام دارفور وشخصياتها الدينية ولم يبايعه بعد ، ولما أشاروا عليه بتورشين كاتبه متودداً . فأرسل إليه محمد التقي الرد مع إبنه عبدالله و عبر هذا بوادي دارفور في سفر سريع شاق حتى أُدخل على الزبير فأحسن إستقباله . وبعد تسليم رسالة والده ابتدر الزبير متسائلاً « هل سمعت بالمهدي في دار صباح ؟ » فاجابه الزبير نفياً . ولم يمكث بعدها عبدالله طويلاً وانتهت المقابلة .

---

(١٥) عبد السلام الخليفه .

(١٦) عز الدين المهدي .

وبين الروايتين المتباعدتين ، المرجح أن عبدالله سعى للزبير مدفوعاً بأحاديث حمدان عنه . فمن ناحية ليس من سبب هناك يجعلنا نتشكك في أنه حمل رسالة من والده وأنه قابله في ظروف ودية أبعد ما تكون من الأسر والتهديد بالقتل . ومما يشكل في رواية الزبير أن عبدالله لم يشتهر أنه فقيه يكتب الاحجبه حتى في دار التعايشة ، دعك من أن تمتد شهرته إلى القبائل المجاورة كالرزيقات ليلجأوا اليه في أمر مصيري كحربهم مع الزبير بل اشتهر عبدالله بعكس ذلك . وهو ابتعاده عن تلك الامور ، وهو ما اتفق عليه أعداؤه وأشياعه على حد سواء .

فهل اختلطت شخصية عبدالله على الزبير وسط زحمة آلاف الشخصيات التي أحاطت به في دارفور في تلك الايام من « القوم الذين لايحصيهم إلا خالقهم » ؟ .

الأقرب إلى المنطق أن يلجأ الرزيقات إلى جده علي الكرار ، الذي أقام بينهم زمناً واشتهر أمره بينهم . فهل كان الزبير يقصد علي الكرار « أبو تورشين » بدلاً من « ود تورشين » ؟ وهل وقع أسيرا بين يديه وهم بقتله لولا شفاعة العلماء بان « السياسه تنكر عليك قتل رجل يعتقد الناس في صلاحه وستنفر القبائل منك (١٧) وهو الوصف الذي ينطبق على علي الكرار . ومن ناحيه أخرى ، من المؤكد أن رواية الزبير لم تنشأ من فراغ . وليس هناك من سبب يدعوه لإختلاقها فعبدالله قابل الزبير . أسيراً كان أم رسولاً . ودار الحديث بينهما ، سواء أن كان سؤالاً أو إستدراجاً أو ترشيحاً ، ولعل الأخير هو الاصوب . وأن أمل عبد الله قد خاب في الزبير بعد أن زجره الأخير وأمره بعدم الخوض في هذا الحديث مرة أخرى .

قفل عبدالله عائداً إلى دار التعايشة . وكان على أعتاب الثلاثين وقد اكتملت ملامح شخصيته التي تعرضنا لملامحها في الصبا . ولكن لابد أن السنين قد أضافت وغيرت وبدلت في الصبي وزادته نضجاً .

---

(١٧) الزبير ص ٨ .

فالأسفار المتعددة خارج دار التعايشة ، والتى عرف منها خروجه للزبير فى الفاشر ، واستثمار لاراضٍ زراعية بالكلكة ، وسعت مداركه وأمدته بذلك الحس الجغرافى المميز الذي لازمه طوال حياته ومكنه من إدارة دولة مترامية الاطراف بكفاءة مشهودة لايختلف عليها حتى اعداؤه ، واستثماره للأراضي التى منحها له الزبير إن صحت روايته ، أدخلته فى مجال الزراعة والتسويق ، بعيداً عن ما تعود عليه من حياة البداوة والرعي والصيد . أما أنه كان مقاتلاً حاذقاً يحسن إستعمال السلاح فهذا ماستثبته الأحداث اللاحقة فى معارك الثورة الأولى ، حين كانوا قلة من الرجال وكان دائما فى الصفوف الأمامية ، وتؤكد أنه خاض عدة معارك فى فترة شبابه تلك ، إن كان فى حروب القبيلة كحرب السخت أو حروبات الرزيقات ضد الزبير ، أو على الاقل خلال رحلات الصيد العديدة .

وأخيراً كان هناك عبدالله الزوج ، بكل ما يحمل الزواج من تبعات ومسئوليات ونضج عاطفي وحسي ، أبرزه عاطفة الابوة المستحدثة . وقد ظل الخليفة طوال عمره أباً عطوفاً ولدرجة التدليل ، بل أن حبه لعثمان إبنه الاكبر كان من نقاط ضعفه الكبرى . كانت زهرة فتاة وسيمة التقاطيع فارعة القامة قوية الشخصية ، تزوج منها وهو في منتصف العشرين وعاشت معه بقية عمره (١٨) .

أصابه الفشل في الجولة الأولى . فقد وجد الباشا على عظمته بعيداً كل البعد عن أحلامه وغاياته ، ومن ثم بدأ الجولة الثانية وهذه المرة اتجه شرقاً . إلى النيل .

---

(١٨) لسبب لم يوضحه ، ذكر الأنصاري أن والد عبدالله " زوج له وهو مكره ومغضوب ومجبر . . . " مخطوط الأنصاري ص ٣٣ .

٥

الجوله الثانيه

في دار الجمع ، بعيداً عن دار التعايشة ، وهو على فراش الموت حث تورشين ابنه قائلاً : اذهب إلى النيل .. إلى الشيخ محمد أحمد .. الرجل الصالح وستجده في جزيرة بين بحرين ... ولا تعد لدار التعايشة أبداً .. (١) (٢) .

فبحلولهم بدار الجمع ـ قريباً من النيل الابيض ، دخلوا في المجال المغناطيسي لتلك الشخصية الغريبة التي لم ينقطع الحديث (٣) عنها على ضفتي النيل : تقوى وزهد ما بعدها تقوى ، وسيل متصل من المواعظ والخطب الآسرة التي تحلق بسامعيها لآفاق بعيدة لم يألفوها من شيوخ الدين الآخرين . وقد ترامى كل ذلك لأسماع تورشين خلال الأشهر القليلة التي إنصرمت منذ تركه دار التعايشة (٤) . وبدأت الإتصالات بينهما .

ولابد أنه كان أمراً جللاً ذلك الذى أغضب محمد التقي تلك الغضبة الجامحة التى جعلته يترك الديار التى نشأ فيها وتزوج منها وأصاب فيها ما أصاب من نجاح ومكانة مرموقة ولم يعرف وطناً غيرها .

---

(١) SLATIN , P . 128 ..

(٢) الشيخ محمد عوض .

(٣) ذكر كاساتي الرحاله الايطالي أنه منذ ذلك الزمن المبكر ، منتصف عام ١٨٨٠ ، بلغت شهرة الشيخ محمد أحمد شاواً بعيداً « فعند مرورهم على جزيرة أبا ـ أطلقت الباخرة النيلية اربعة صفارات طويلة تحية للشيخ ورفعوا ايديهم بالدعاء . وعندما سألت أحد النوتية عما يفعلون أجاب أنهم أمام جزيرة أبا معقل الشيخ محمد أحمد أحد أولياء الله ، وأن نفوذه عظيم على تلك المناطق ، وأن الحكومة نفسها تتعامل معه باحترام وتمنع بواخرها من جلب حطب الوقود للبواخر من الجزيرة أبا .

CASATI, TEN YEARS IN EQUATORIA LONDON, 1891..

(٤) J.A.REID, NOTES ON THE KHALIFA FROM CONTEMPORARY SUDANESE SOURCES. SUDAN NOTES & RECORDS VOL. 21-p.207

والشائع بين المصادر (٥) (٦) (٧) التى تناولت رحلة محمد القدرية تلك إلى النيل الأبيض ، أنه خرج للحجاز حاجاً ، عازماً على أن (يجاور) في الاراضي المقدسة ، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن بتلك البساطة . فمن يذهب للحج لا يأخذ كل عشيرته ، حتى الخدم والماشية . ثم أن الرجل كانت تنتابه نوبات من السخط على التعايشة (٨) وديارهم ، بل ناشد ابنه الأكبر و هو على فراش الموت ، أن لا يعود أبداً لدار التعايشة (٩) ، فهو قد تركها وراءه إلى الابد .

وقد فسر الزبير (١٠) هجرة محمد التقي بأن وراءها ضيق المعايش . وهناك تفسير آخر بأن تورشين وعشيرته راهنوا على قضية خاسرة عندما وقفوا مع الرزيقات ومن خلفه المؤسسة التقليدية ممثلة فى السلطان ابراهيم ، وأنهم أدركوا أنه لن يطيب لهم العيش بعد تغير الأحوال وهيمنة الزبير وحكومة الخرطوم على ديارهم . وقد تكون هذه أو تلك عوامل أسهمت في قرار محمد التقي المصيري ، ولكن السبب المباشر كان مختلفاً ، فأحد معاصري تلك الاحداث يذكر (١١)

« أن رجلاً فقيهاً يدعى دقيرشن طلب الزواج من إمراة من أولاد عباس تدعى عنجة تزوجها فيما بعد أحمد خوف وولدت له ابنه الغزالى فرفض أولاد عباس تزويجها من الفقيه وحدث الخلاف فاستعان دقيرشن بالهضاليل ووقعت معركة بينهم كان الجبارات طرفاً فيها وانهزم جناحهم ، فخرج الجبارات وفي صحبتهم خرج والد الخليفة إلى الشرق » .

---

(٥) شبيكة ٣١٥ .

(٦) HOLT, P.44

(٧) شقير ٥٨٣ .

(٨) فرح عيسى ص ٨٤ .

(٩) SLATIN, P. 128..

(١٠) الزبير ص ٩ .

(١١) فرح عيسى ص ٧٨ . احمد خوف اكبر زعماء التعايشة و من اكبر بيوتها .

خرج تورشين بمعظم عشيرته ، بما فيهم والدته المسنة وبعض تلاميذ المسيد امثال مساعد قيدوم (١٢) وأحمد علي وفضل (١٣) المولى صابون (١٤) شقيق حمدان ابو عنجة . اتجه أولاً إلى شاكا ومنها إلى الكلكة حيث انضم إليه ابنه عبدالله الذي استقر في حقوله الزراعية منذ سنين بعد زواجه من زهره .

---

(١٢) الامير مساعد قيدوم (١٨٦١ - ١٩٣٤) كان أحد تلاميذ تورشين من قبيلة الهبانية . رافق محمد التقي في رحلته للشرق ولم يفارق عائلته و تركه عبدالله مع عائلته في ابوركبه . إنضم للمهدى فيما بعد فى جبل تقلي واشترك في معارك الثورة المهدية في كردفان كواحد من الرتب الصغرى ثم بصفته ملازماً للخليفة عبدالله . وبدأ نجمه في الصعود عندما عينه الخليفة عبدالله أميراً ليخدم تحت أمير الامراء عبد الرحمن النجومي ، حيث أصبح شوكة فى جنب الاخير بمضايقاته واستفزازه وتصاعد الخلاف بينهما حتى أرسل الخليفة يونس ليتولى إدارة الاقليم . ثم أرسل مساعد ليحارب الايطاليين في ارتريا وأعيد مرة أخرى للاقليم الشمالي وصادف حملة كتشنر عام ١٨٩٦ واشترك فى معركة الحفير وانسحب جمد الخليفة امارته . واشترك في معركة كرري وبعد انسحاب الخليفة إلى الغرب تسلل من صفوفه وظل أسيراً فى يد قوات الاحتلال حتى ١٩٢٠ حين أطلق سراحه و عين عمدة لفرع الرفاعية فى قبيلة الهبانية حتى عام ١٩٣٢ .

حياتي بابكر بدرى

(١٣) الأمير أحمد علي فيما بعد (حوالى ١٨٦٠ - ١٨٩٣) ابن عم الخليفة عبدالله . ترقى حتى وصل إلى أمير ربع وخدم تحت الزاكي . وحين تولى الزاكي القيادة وأحرز انتصاراته الباهره على الملك يوحنا تآمر أحمد علي ضد الزاكي بالوشايات والأقاويل وكان شاهد الاتهام الأول في محاكمته بتهمة التواطؤ مع الإيطاليين وكانت محض افتراء أدت إلى نهاية الزاكي المأساويه . تولى قيادة جيش الشرق وقتل في معركة اغوردات . سليمان محمد سليمان الزاكى طمل ص٢ .

(١٤) فضل المولى صابون (حوالي ١٨٣٥ ــ ١٨٩٨) شقيق حمدان ابو عنجة من امه . إنضم للمهدي في قدير مع عائلة الخليفه . كان ساعد حمدان الأيمن في إنشاء جهادية الاسلحة النارية . وكان أمير ربع حتي بعد أن سمي جهادية حمدان بجيش الكارة . إشترك في المحاولة الانقلابية للخليفة شريف وكان أحد اركانها .

وقد آوى عبدالله أباه وعشيرته وتكفل باموره المعيشية قرابة العامين (١٥) إلا أن تورشين كان مصمماً على ترك دارفور نهائياً ، فقد راسل والده في دار المعاليا حاثاً أباه أن ينضم لهم ، وأخذ والدته المسنة معه لتعاونه في اقناعه بالخروج معهم ونظم قصيدة (١٦) طويلة أرسلها إليه متوسلاً اليه أن يرافقه في هجرته للبيت الحرام :-

فيا والدي لا تأسف تقدم ولا تخف — طريق رجال الله هجر النبوه
فانظر بني عمران هاجر لمدين — وصار كليم الله في لحظه
وأفضل خلق الله سار للمدينه — فدانت له الدنيا ليوم القيامه
وا قلة صبري وفكري وحيرتي — اغيث بلاد الله بحجي وهجرتي (١٧)

ولما طال انتظاره لوالده حمل عصا التسيار مرة أخرى واتجه شرقاً .

كانت مسيرة تورشين في اختراق غرب السودان بطيئة متمهلة ، فمن ناحية اكتظت القافلة بعشرات النساء والاطفال والدواب ، ومن ناحية أخرى كان محمد التقي يتوقف كلما ترجاه رجال القبائل الذين صادفهم في طريقه أن يقيم بينهم فترة لعلاج الحالات المرضية المستعصية أو كتابة الاحجبة ، فالرجل قد ذاع صيته إلى المناطق المتاخمة لدار التعايشة ، ومن ناحية أخرى يقال أنه أقام عدداً من الخلاوى في طول وعرض الديار التي مر بها بناء على طلب قبائل بني هلبة والهبانية والمعاليا والرزيقات والحوازمة والمسيرية (١٨) .

---

(١٥) = SLATIN , P . 127

(١٦) د . عز الدين المهدي .

(١٧) الشيخ محمد العوض .

(١٨) مذكرة السيد عبد السلام الخليفه .

كانت الهجليجة محطة توقفه الثانية (١٩) حيث زار والده وألح عليه للمرة الاخيرة لمرافقته ، ولكن الوالد إعتذر مرة أخرى ، فودعه الوداع الاخير وواصل مسيرته مخترقاً دار الرزيقات إلى دار حمر في المسيريه ، ومنها الي دار الحوازمة مروراً بعشرات القرى والفرقان إلى أن حل اخيراً عام ١٨٧٩م بأبي ركبه بدار الجمع على مسافة يسيرة من النيل الأبيض .

كانت الرحلة شاقة ، فعزم محمد التقي على استراحة طويلة ، قد تكون مسبباتها رقة حالهم وتدهور أحوالهم المادية ، فأبقارهم القليلة هزلت وتناقصت بعد الرحلة الطويلة الشاقة ، ومورد الرزق الاساسي لتورشين من هدايا آباء التلاميذ وكتابة الاحجبة والرقي تقطعت اسبابه بعد هجره لمسيد طبور .

إلا أن الأقدار لطفت بالقافلة الصغيرة ، فما أن ترامى نبأ وصولهم لأبي ركبه لمسامع الشيخ عساكر ابو كلام (٢٠) شيخ قبيلة الجمع ، حتى هرع إليهم وكانت بشاشة الشيخ وبوابه المثقلة بالمؤن وزكائب الذرة والأبقار التي تثاقلت خطاها خلفه ، خير ما يمكن أن يصادفوه في ديارهم الجديدة .

شرعت العشيرة الصغيرة في بناء الفريق الجديد بهمة ونشاط ، وسرعان ما ارتفعت القطاطي الطينية وكست رؤوسها سقوف القش ، فتناثرت بعد قليل بضع اكواخ آوت العشيرة الصغيرة الوافدة . ابتسمت الايام قليلاً لمحمد التقي وأنسته بعض أحزانه التي حملها من دار التعايشة . وقد توافد إليه الكثيرون من أهالي المنطقة الذين كسب ودهم ، بدماثته وتقواه وعلمه الغزير ، واستجاب لدعوة الشيخ عساكر بأن يقيم مسجداً وخلوة في دار الجمع لتعليم الصبية (٢١) وبنى لهم أبنية مستديمة مناسبة ، فعاود مهنته المحببة .

---

(١٩) الشيخ محمد العوض .

(٢٠) HILL, P . 62=

(٢١) محمد عبد الرحيم .

كان من بين زواره الشيخ مضوي عبد الرحمن (٢٢) من مشاهير المنطقة الذي أذاع نبأ وصوله بين قبائل النيل الأبيض .

وفي هذه الفترة ، تروي بعض المصادر (٢٣) أن محمد التقي اتصل بالشيخ محمد أحمد وجرت عدة مراسلات بينهما ، بل هم محمد التقي بالسفر إليه في الجزيرة أبا لولا أن ألح عليه الشيخ عساكر بالبقاء حتي تكتمل الخلوة .

ولكن الأيام لم تمهل محمد التقي ليكمل رحلته إلى الأراضي المقدسه ، ولا حتى الي أبا القريبة ، أو ليهنأ قليلاً بضيافة الشيخ الكريم .

فالأساطير المتداولة (٢٤) بين التعايشه تذكر أن محمد التقي أحس بدنو أجله بعد بضعة أشهر من حلوله بدار الجمع . فاستدعى إبنيه يعقوب وعبدالله وطلب كعادته دائماً معهما ، التطهر والدخول في خلوة لمدة ثلاث ايام ، وفي نهايتها طلب منهما أن يقصا عليه ماحلم به كل منهما في خلوته . فذكر عبدالله أنه رأي جملاً مذبوحاً ولحمه يوزع علي المدعويين فرد عليه والده « المهدية تقسمها بروحك الطويلة دي » . ثم التفت إلى يعقوب متسائلاً ، فتردد الابن الأصغر ، فحثه والده على الحديث بلا مواربة ، فذكر أنه حلم بوفاة والده ومكان قبره . وجم محمد التقي ، وساد صمت طويل قطعه الأب أخيراً راجياً إبنه أن يريه مكان قبره ، فأرشده اليه ووضع عليه علامة .

---

(٢٢) بينما تتفق مذكرة عبد السلام الخليفه ومحمد عوض في زيارة الشيخ ود مضوي لمحمد التقي واحتفائه به ، يذكر عبد السلام أن الشيخ عساكر ابو كلام لم يحتفل بمحمد التقي كثيراً في البدايه ولكن بعد زيارة مضوي بالغ في اكرام ضيفه ومساعدته مادياً وساهم مساهمه فعاله في بناء المسجد والخلوه والمنازل .

(٢٣) REID , SNR , P. 208=

(٢٤) الشيخ محمد عوض .

ومنذ ذلك اليوم أمضى محمد التقي شهوره الاخيرة في التأهب لملاقاة ربه وفي نصح أبنائه وعشيرته وترديد وصاياه العديدة ، ومنها توجيهه لابنه الاكبر بألا يعود إلى دار التعايشة أبداً وأن يبحث عن الشيخ محمد أحمد (٢٥) (٢٦) وعندما وافاه أجله المحتوم في عام ١٨٧٩م دفنه ابنائه بعيون دامعة وقلوب مكلومة .

ولكن عبدالله لم يستسلم للحزن طويلاً . فبعد إتمام مراسم العزاء المعهودة وفي أقل من اسبوع (٢٧) شد الرحال تنفيذاً لوصية والده .

كان الشيخ عساكر كريماً . وكرمه هو الذي مكن عبدالله من الشروع في الجولة الثانية في بحثه المضني بلا تردد ، فوفاة محمد التقي جعلت من عبدالله كبير الاسرة وراعيها والمسئول عن إعاشتها وهم في تلك الظروف العصيبه بعيداً عن ارضهم وعشيرتهم ومواشيهم ، وقد تقطعت سبل الرزق التي الفوها في دار التعايشة . فقد طمأن الشيخ عساكر عبدالله بأنه سيتكفل برعاية اسرته اثناء غيابه ، فليهدأ باله ولا ينشغل عنهم قط ، فتركهم وديعة بين يديه .

حق لعبدالله أن يحس بكل ذلك القلق على مصير أسرته . فليس أدل من حالة الضنك التي كانوا فيها من أن عبدالله ، وهو كبير الأسره ، حين غادرهم كان كل زاده للرحلة حماراً وزكيبة من الذرة وملابسه التي على جسده .

شرقت الشمس وغربت مرات ومرات ، وبين هجيرها وبرودة الليل القارس مضى عبدالله في طريقه في اندفاعة سريعة نحو النيل لا يلوي على شيء ، لا مأوى له حين يبلغ به النصب والتعب منتهاه إلا ظلال الاشجار ، ولا غطاء إلا قميصه ولا طعام إلا ما يجود به الرعاة الذين صادفهم في الطريق .

---

(٢٥) =B . RICHARD, THE MAHDI OF ALLH P . 90

(٢٦) =SLATIN , P . 128

(٢٧) الشيخ محمد عوض .

وفي الصباح وقع بصر عبدالله على النيل الأبيض العريض . ولا بد أنه أدرك ، وهو مبهوراً أمام ذلك السائل الثمين المتدفق بلا جهد مضنٍ في حفر الآبار أو انتظار مواسم الأمطار المتباعدة ، أنه أشرف على مرحلة جديدة من حياته ، في عالم آخر غريب .

كان لقاؤه بالنيل في نقطة ما بالقرب من كوستي الحالية . وبينما هو يذرع شاطيء النيل جيئة وذهاباً وقد تملكته الحيرة في تخطي هذه العقبة المنيعة أذا به يصادف رجلاً طويلاً ، حياه بحرارة ودعاه ليشاركه الطعام .

وعندما تجاذبا أطراف الحديث وعلم الحاج محمد أبو قرجه (٢٨) بأن ضيفه تجشم كل ذلك العناء لمقابلة الشيخ محمد أحمد ، بالغ في بشاشته وإكرامه للضيف . فهو يعرف الشيخ محمد أحمد ككل سكان المنطقه . بل يعرفه شخصياً ، فهو نوتي . يمتلك قارباً شراعياً كبيراً يعمل كعباره بين الضفتين ولكن للأسف فان الشيخ محمد أحمد قد غادر الجزيرة منذ بضعة أسابيع إلى طيبة داخل منطقة الجزيرة ، إذ توفي شيخه الأكبر الشيخ القرشي ود الزين . ولا بد أن التأخير سببه أن الشيخ محمد أحمد أخذ يرتب اموره (الطريقة) التي تولى خلافتها بعد الشيخ القرشي وسيبني له قبة تخليداً لذكراه . (لكن لا عليك .. فسأعبر بك النيل على مركبي هذا وستجد طريقك الي الشيخ بسهوله ، فالكل يعرفه .)

عبر الحاج أبو قرجه بالغريب الوافد إلى مرابيع ود اللويح بالضفه الشرقيه للنيل وودعه بحرارة . لكز عبدالله حماره وفوقه زكيبة الذرة المعهودة ووضع عليها قميصه

---

(٢٨) أقوال الحاجه ساره بابكر بدري – بيد المؤلف .

HOLT, PP 64-90-93-166-169-

وعاود السير المضني . كان عليه هذه المرة أن يخترق أرض الجزيرة كلها ليصل الي هدفه - قرية طيبة على النيل الأزرق (٢٩) .

وكلما ابتعد عن النيل ، كانت متاعب الرحله تتزايد . فسكان ضفاف النيل إرتبطوا بنحو أو آخر بغرب السودان وتعودوا على رؤية البقارة وأهل الغرب بملابسهم ولهجتهم الغريبة نوعاً ، فلم يكن النهر العريض فاصلاً حقيقياً بين شرق البلاد وغربها بل كان صلة ربط بينهما وأشبه بطريق مائي تتدفق على جانبيه المحاصيل والمواشي لتصديرها للخرطوم بالطريق النهري المريح . أما بداخل الجزيرة فقلما يصادف اهلها أولئك الاغراب .

---

(٢٩) هناك روايه اخري ، تفيد أن عبدالله زار الشريف محمد نور الدائم قبل وصوله للمهدي ، فقد ذكر الأخير : « في سنة ١٢٩٥ هـ جاءني رجل من البقارة يروم سلوك السمانية على يدي فلقنته أورادها ومكث ملازماً لخدمتي بمنزلي نحو عامين فكان أكثر كلامه معي قوله أنك المهدي المنتظر من ارتاب في ذلك فقد كفر فكنت انهاه عن هذا القول ولا ينتهي وفي ذات يوم قلت له أنا لست مهدياً وأبغض شيء إلي سماع هذه الكلمه التي لا يسير بها غير تلميذي الذي طردته محمد أحمد وقلت له على سبيل السخرية والإزدراء إن كنت ممن يتوقعون ظهور المهدية فعليك به وفي اليوم التالي سألت عنه فلم أجده .

لقد استبعد أغلب المؤرخين حدوث هذا اللقاء ، ليس لأن ابراهيم فوزي ذكرها ، وقد كان اغلب كتابه اشبه بالحملة الاعلامية على الخليفة ، ففي تناولنا المصادر المتباينه تناولنا كل مصدر وبالذات المعاصرين لذلك العهد ، كخامة يمكن الاستفادة منها بعد تنقيتها من الشوائب والاغراض ، فمثلاً ليس هناك ما يمنعنا من قبول رواية سلاطين عن رحلة عبدالله للمهدي الذي ادعى أنه سمعها من الخليفه مباشرة لما كانت مع قرائن الاحوال وتؤيدها مصادر اخري مع علمنا بان سلاطين لا يقل جوراً وحنقاً على الخليفة . لقد استبعدت رواية ابراهيم فوزي أساساً للإستحاله الزمنيه بادعاء الشيخ محمد شريف بأنه مكث معه عامين ، لمخالفتها لرواية سلاطين والشيخ محمد عوض من المعاصرين للخليفه ، والمؤرخين هولت والدكتور ابو سليم . إبراهيم فوزي ص ٧٥٦ .

أحاديث الدكتور ابو سليم .

لقد لفت عبدالله الأنظار بصدره العاري وسرواله وحربته الطويلة ولهجته الغريبة . ومما زاد الامر سوءاً ، الروايات المتداولة بين الأهالي من البحارة والجلابة الذين ساقتهم التجارة لكردفان ودارفور أو بحر الغزال وما تعرضوا له من مخاطر وغارات من فرسان البقارة المشاكسين . وما بعدت عن الأذهان بعد أخبار حروبات الزبير في دارفور وهي التي تسببت أصلاً من تعرض هؤلاء لقوافله ، فكان لابد للغريب أن يتعرض بدوره للريبة ثم العداء بل والإعتداء والنهب والسلب .

وقد أحس عبدالله بهذا الشعور العدائي منذ اليوم الأول لاختراقه السريع لأرض الجزيرة : فقد ظل يسعى على قدميه طول النهار ، وعندما أذنت الشمس للمغيب وقد بلغ به النصب والتعب منتهاه ، أشرف على قريه من قرى الكواهلة فالتمس من كبيرها مأوى يمضي فيه ليلته ، فنظروا إليه باستغراب وسألوه عن موطنه وعندما أجاب « دار التعايشة » تصايحوا « تعايشه - عمرنا ما سمعنا بيها .. لامأوى لك بيننا — فمثلك سيكون السبب في خراب ديارنا . (٣٠)

بالطبع لم يبادره كل من قابله بالعداء ، فكثيراً ما صادف الحادبين الذين أخذوا بيده وأعانوه . فعند خروجه كسير الخاطر من القرية وهو ينوي المبيت في العراء ، إذا بصوت نسائي يناديه ، فالتفت فرأى إمرأة مسنة تقدمت إليه وأمسكت بحماره وقادته إلى كوخها وأوقدت ناراً فأعدت له عشاءً ساخناً فنام قرير العين .

ومن المدهش في هذه المرحلة الأخيرة من رحلته والتي انطبعت تفاصيلها في ذاكرته طويلاً ، تطابق التفاصيل التي أوردها عنه مصدران منفصلان بعيدان عن بعضهما البعض .

---

(٣٠) محمد عوض .

فرواية الشيخ محمد عوض ، أحد معاصري الخليفة عبدالله منذ عهده في دار التعايشة ، تكاد تطابق رواية رودلف سلاطين التي استقاها من الخليفة نفسه ، في الفترة القصيرة التي نال فيها ثقته وبلغ بهما الود إلى درجة انفراده به يتسامران وحيدين في الليالي الطويلة .

وفي تلك الليلة التي خصه الخليفة بالحديث عما تعرض له في رحلته بدأ روايته ، فقال : -

منذ غادرت بلادي الجميلة . طبعاً شاهدت دارفور يا عبدالقادر - فقد خدمت فيها . . لم أشق كما شقيت في ذلك الجزء الأخير من رحلتي للقاء المهدي كانت رحلة شاقة حقاً . . كان كل ما أملك هو حمار . . وحتى هذا لم يعني على مشاق الرحلة فقد كان لظهره دبراً عظيماً فلم استطع ركوبه بل حملت عليه زكيبة الحبوب وقميص الدمور الخشن الوحيد الذي كنت أملكه . . لقد استرعت ملابسي ولهجتي نظر السكان . . وبمجرد عبوري النيل كان بعضهم يصيح في وجهي « ما الذي تريده ؟ عد إلى بلادك فليس لدينا ما تسرقه » . فقد كانوا يظنون بنا الظنون نحن أهل الغرب . . . فقد تعرض الجلابة المتوجهون للزبير في دارفور وبحر الغزال للنهب والسلب . . . وعندما كنت أسألهم عن الشيخ محمد أحمد . . . كانت إجابتهم الساخرة « وماذا يريد مثلك منه إنه لا يدنس حتى شفتيه بذكر اسم قبيلتك . . » ولكنني لم الق تلك المعاملة السيئة دوماً . . فبعضهم كانت تأخذه الشفقة بل ويعطف علي ويرشدني إلى الطريق . . . وفي أحد الأيام كنت أعبر إحدى القرى ، فصادر أهلها حماري مدعين أنه سرق منهم منذ عامين ولم استطع التخلص منهم لولا تدخل رجل مسن يخاف الله أنقذني منهم وسمح لي بمواصلة طريقي . . لقد كنت باستمرار معرضاً للسخرية والإضطهاد (٣١) .

---

(٣١) SLATIN, P. 129 ..

إقترب عبدالله من طيبة . لم يسأل هذه المرة عن الشيخ محمد أحمد ، فقد وعي دروس الأيام السابقة ، بل سأل عن حوش الشيخ القرشي ودالزين وتقدم نحوه بخطى وجلة . ولما اقترب شاهد ثلة من الرجال تعمل بهمة ونشاط فيما يبدو أنها عملية بناء : فجماعة تعجن الطين ، وتناوله لجماعة أخرى تضع اللبنات على بناء دائري في شكل قبة . ومن بين القوم وقعت عينه على رجل فارع الطول إرتفعت قامته بينهم وقد انهمك في العمل .

٦

اللقاء

أسرع عبدالله الخطى نحوهم . حانت من الرجل الطويل التفاتة إلى ناحيته فوقعت عين عبدالله عليه . تسمر في مكانه . فقد أصيب بهزة عنيفة دامت بضع دقائق ، استجمع بعدها قواه فجلس على الارض (١) .

ظل عبدالله في جلسته تلك ساعات طوال لم يرفع أثناءها نظره عنه مكتفياً فيها بالجلوس صامتاً وهو يحدق البصر في الرجل مراقباً كل حركاته وسكناته من مشاركة في البناء ، وتناول الطعام ثم الصلاة والحديث مع عشرات المريدين والزوار .

لم يكن ما أحس به عبد الله غريباً ، فقد كان الشيخ محمد أحمد شخصية عظيمة التأثير على من حوله ، ولسنين طويلة ظل معاصروه يتحدثون (٢) عن « أنه ما بتوصف » أو أنك « لا تستطيع رفع عينيك عنه » أو « لاتسطيع رفع عينيك إليه » فقد كان ذا مظهر أخاذ ، طويل القامة عريض الكتفين ضخم الرأس (٣) ذا وجه مسنون سيطرت عليه عينان واسعتان دعجاوان مغناطيسيتا الجاذبية ، ملابسه دائما ناصعة البياض معطرة بالمسك وحديثه خلاب تزيده سحراً ابتسامة دائمة تكشف عن اسنانه اللامعة وفلجته المشهورة يدعمه منطق وذكاء خارق لم يستطع حتى ونجت ، ألد أعدائه إنكاره « لاشك أن الرجل كان صاحب أذكى عقلية وأصفى وأوضح رؤيا لا ينازعه في هذه المواهب أحد على طول وعرض المليون ميل مربع » (٤)

---

(١) SLATIN, 127

(٢) الشيخ محمد عوض – أقوال بابكر بدرى – يوسف بدرى

(٣) OHRWALDER, P.42

(٤) R.F. WINGATE, MAHDISM IN THE ANGLO - EGYPTIAN SUDAN, 1889, LONDON , P. 216

وقد أسهب الواصفون في لقاء عبدالله الاول بالشيخ محمد أحمد وبالغوا (٥) قليلاً في تجسيم الصدمة العنيفة التى أحس بها الاخير . فشقير (٦) يذكر « لما رآه وقع مغشياً عليه ولم يفق من غشيته إلا بعد ساعة أو أكثر و لما أفاق عاد فنظر الى محمد أحمد و تقدم لمصافحته فأغمى عليه مرة ثانية ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبواً على الأرض فأخذ يده و هو يرتعد و يبكي ... وعلى نفس المنوال وصف مخطوط الانصارى لقاءه « فلما قابل الامام سقط مغشياً عليه ثلاثة أيام فلما أفاق قام وقابله فسقط مرة ثانية ثم قابله الثالثة فأمنه الامام وطمأنه » (٧) هنالك روايات أخرى متعددة تصف ذلك اللقاء .

أما سلاطين فقد نقل عن فم الخليفة نفسه قوله (٨) « عندما وقعت عيني عليه زال عني تعب الرحلة في لحظة واحدة ولم أستطع أن أفعل شيئاً غير أن أحدق النظر فيه والاستماع إلى حديثه . ولعدة ساعات جلست مشدوهاً عاجزاً عن الحركة ، ولكنى لملمت أطرافي أخيراً وتقدمت إليه ... وفي كلمات قليلة متلعثمة حكيت له كل قصتي وعن حال اخوتي اليتامى المكلومين ... وتوسلت إليه بالله ونبيه أن يدخلني في الطريقة . فمد يده إلي ... فقبلتها بحرارة وأقسمت على الطاعة العمياء حتى الموت ... ولقد بررت بهذا القسم حتى لاقى ربه ... وكلنا سنلاقيه يوماً ما يا عبدالقادر » (٩) .

---

(٥) مذكرة السيد عبدالسلام الخليفة .

(٦) شقير ص ٦٤٤ .

(٧) مخطوط الانصارى ص ٣٨ .

(٨) هناك قصة أخرى شهيرة تتداولها الروايات المحلية وهي أن بناء القبة الدائرى لم يستقم أبداً . وانهار عدة مرات . وكان عبدالله أول وصوله يراقب هذا المشهد فتقدم إلى الطين المعجون فغطس رجليه فى الطين و أشار عليهم أن يعودوا البناء وانها لن تسقط بعد ذلك ، وصدقت كلمته و أستقام البناء ثابتاً حتى اتموا القبة .

الشيخ محمد عوض

(٩) SLATIN, 129

لقد سردت سيرة المهدى عشرات المرات ، وتحدث عن حياته القصيرة الحافلة الكثيرون ، وعلى كثرة ما كتب نادراً ما نجد فيها ما يشبع ، فإحساس القداسة من ناحية مؤيديه ، والتطرف فى النيل منه من اعدائه أحبط أى جهد صادق لتقديم شخصية حقيقية ذات لحم ودم وصفات ملموسة . وكل ما يعنينا هنا هوالعلاقة بين الرجلين ، وما فعلته تلك الشخصية الفذة بالغريب الوافد فزلزلت كيانه ، وتخللت أعماق نفسه ، كالسهم ، يمرق سريعاً ويغور عميقاً .

كان الشيخ محمد أحمد قد بلغ مكانة رفيعة في طبقة العلماء عندما قابله عبدالله ، وفي تلك الفترة كان ((سائحاً)) داعياً أولاً إلى الطريقة السمانية ، ثم إلى الاصلاح الديني والمادي عامة في طول وعرض مثلث (١٠) أبا - وطيبة - والخرطوم - وما حوله ، والتف حوله واعجب به الآلاف - فما هو السبب الذي جعله يختارالغريب ، العاري من الجاه والنفوذ ، غريب اللسان والهيئة ، ويظل منذ لحظة لقائه ((يرفع فيه و يرقيه)) كل تلك الترقيات الاستثنائيه ، متجاوزا كل من حوله حتى أصبح الرجل الثاني ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تبدو شائكة للغاية ، وعندما حاول البعض تبسيطها ، كانت الخلاصة هى شىء يتراوح بين طرفي نقيض . فالبعض يمضي إلى الحد الذي يبالغ فيه في دور الخليفة ، وأنه هو الذي حث الشيخ محمد أحمد على فكرة المهدية ، « وأدخل فى روعه » أنه المهدى المنتظر - مستندين الى ماضي عبدالله وخلفيته العائلية وبحثه الدؤوب عن المهدى وقصته مع الزبير وأن عبدالله اختلى بالشيخ محمد أحمد لثلاثة أيام حتى تضايق حيرانه من استئثار (المستجد) بكل ذلك الاهتمام ، وأن المهدى لم يجاهر بدعوته الا بعد لقاء عبدالله وأنه ذكر « بأن المهدية كانت ستأتيني عند

---

(١٠) تحقيق ابو سليم ــ سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ــ الكردفاني ــ ص ٩٠ .

تمام الاربعين مثل كل الامور المهمة ولكن إكراماً لقدوم خليفة المهدي تقدمت سنتين وأنتني في سن الثامنة والثلاثين » (١١)

والبعض يبخس دور الخليفة عبدالله إلى حد القول أن كل ما يعنيه بالنسبة للمهدي هو أنه كان أداة طيعة ذات ولاء مطلق تفعل كل ما تؤمر به دون تردد أو جدل . وحتى هؤلاء لا يعني دليلهم الأكبر شيئاً كثيراً عندما يرددون رواية عبدالله نفسه لسلاطين « بان المهدي هو الذي باح لعبدالله بسره الخطير أولا . دون أن يحدثه عبدالله في هذا الأمر ... » فلو كان هناك شي خلاف ذلك بين الرجلين لما أسر به عبدالله لسلاطين ، وهو يستمد كل شرعيته من صدق دعوة المهدي .

فالإجابة المحددة على السؤال تبدو مستحيلة . إذ هو أمر دار بين الرجلين على انفراد ولا يعرف سره سواهما . وهناك حدود للاستقراء والتحليل التاريخى يجب أن يُقف عندها .

وداخل تلك الحدود « المأمونة » للتحليل يمكننا أن نعدد الاسباب التى قربت عبدالله للشيخ محمد أحمد وجعلته صفيه الأول :

لا شك أن أولها كان تمثيل عبدالله لمنطقة غرب السودان عامة ودارفور خاصة ، بموقعها الجغرافى البعيد عن قبضة الخرطوم ، وقومها المحاربين الذين « لا يحصيهم إلا خالقهم » المتحرقين شوقا إلى ظهور المهدي المنتظر .

---

(١١) هولت يقدم رأياً أخر فيقول - ((تحركت الاحداث سراعاً نحو الجهر بدعوة المهدي .

ومن المعقول أن نقرر أن وصول عبدالله كان عنصراً حاسماً في اعلانها . لقد أبانت حادثه الزبير أن عبدالله كان يبحث عن مهدي سوداني وقد ذكر سلاطين أن الخليفة حدثه بانه أدرك أن الشيخ محمد أحمد هو المهدي بمجرد أن وقع بصره عليه . ولكن المهدي لم يكن ابداً اداة في يد حواره الجديد . ولايمكن لفكرة المهدية الا أن تنبع من يقين داخلي واقتناع وايمان نبع من أعماق نفسه .

كان « سره الباتع » يكمن فى أنه « الرائد » « وأول الوافدين » من تلك المنطقة ومن « أبكار المهدي » فقبيلته الصغيرة في موقعها القصي ، وحتى موقعه في تلك القبيلة الصغيرة جعله يبدو وكأنه من أغوار الغرب ، ورحلته الشهيرة التى اخترق فيها الغرب من افريقيا الوسطى حتى النيل الابيض أهلته ليكون عنصر استكشاف ومصدر معلومات عن عالم لم يكن المهدي يدري عنه شيئا ولكنه كان يحس بأهميته . وقد ذكر كل من أرخ لتلك الفترة في حياة المهدي من أنه كان يجمع المعلومات عن بقاع السودان واستعدادها للثورة (١٢) بدأب و صبر . « فقد أمده بمعلومات كاملة عن قبائل غرب السودان التي عرفت بالكثرة والشجاعة والتي ستكون أول المبادرين بالقتال في سبيل الله ... » وهنا يمكننا أن نقطع الشك في دور عبدالله المتعاظم بأن أول رحلة قام بها المهدي بعد عودته لابا كانت خارج نطاق محاوره التقليدية في الجزيرة ، وأول مكان توجه إليه كان ابو ركبة حيث استقرت عائلة عبدالله .

أما ثانيهما فهو الميل الشخصى والمحبة الخالصة التي أحس بها الشيخ محمد أحمد نحو عبدالله « ... ورغماً عن مئات الرجال من حوله . فقد احسست أننى احتللت مكاناً فى قلبه » (١٣) ومن بين الخيوط الكبيرة المعقدة التى تشابكت في تلك العلاقة ، هناك خيطان رئيسيان جذبا الشيخ للوافد هما اخلاصه وولاؤه الذى لم يكن تشوبه شائبة ، فقد ذكر لسلاطين بحرارة وصدق « لقد أقسمت يمين الولاء في محبته وطاعته وقد بررت بقسمي حتى وفاته » ثم كانت هناك جاذبية عبدالله الشخصية - الذكاء والتصميم والشجاعة والروايات التى لاتنتهى عن قبائل الغرب وحروياتها وطرائفها بلسانه الذرب ولهجته المحببة ، لقد و جد فيه خلاً وصديقاً ، قادراً ، وفياً ، ممتعاً . فماذا يطلب أكثر من ذلك ، ومن سيجد خيراً منه ؟

---

(١٢) القدال ص ٤

SLATIN, 131 (١٣)

ما أن تبددت رهبة اللقاء الاول حتى انتظم الوافد في سلك الطريقة وفي حياته الجديدة . كان الشيخ يتجاهله متعمداً وهو يرقبه خلسة ، فقد كان في فترة اختبار ، وكأى « مستجد » في وحدة عسكرية انتظم فى دورة تدريبية فقد استدعى الشيخ أحد حيرانه الموثوق بهم ، و يدعى علي ، وأوكل إليه أمر تعليم عبدالله أسرار الطريقة وأدعيتها ونظمها . أصدر الشيخ تعليماته التدريبية باسلوب ودود ، فعندما اجتمعا به وجه حديثه إلى عبدالله بأن علي اصبح أخاه في الدين .

كان اختيار الشيخ لمعلم عبدالله موفقاً . فقد كان علي عطوفاً رقيق الحاشية يقتسم كل ما يقع بين يديه من طعام وهدايا مع أخيه . وسرعان ما تأقلم عبدالله فى « مسيده » الجديد وتفانى في أداء واجبه . تبدل التلميذ الكسول المتمرد ، فقد وجد مبتغاه أخيراً . وقد صرح لسلاطين أنه أدرك منذ لقائه بمحمد أحمد ، وقبل أن يكاشفه الأخير بسره الخطير ، أنه المهدي المنتظر ، فأحس براحة نفسية واطمئنان أزالا عنه التوتر الذي لازمه طوال رحلة العمر ، فوهب نفسه وانكب بجد ونشاط ، لواجباته الشاقة .

وفي مرحلة السياحة ، كان للشيخ محمد أحمد الاف المريدين في طول وعرض الجزيرة ولكن رفاقه المستديمين كانوا قلة ، أبرزهم قريبه (١٤) أحمد شرفي وعلي ود حلو من قبيلة دغيم بالنيل الأبيض ، وهو من أوائل المنضمين للشيخ محمد أحمد (١٥) والمنتمين لدعوته الاصلاحية .

استغرق بناء قبة الشيخ القرشي شهرا (١٦) كاملاً عملوا فيه بجد ونشاط أدهش

---

(١٤) شقير ص ٦٣٣ .

(١٥) snr p. 208

(١٦) علي المهدي ص ٢٣

خلاله الوافد الجديد أقرانه بحسن تصرفه ونشاطه (١٧). ولما حانت رحلة العودة إلى مقر الشيخ الدائم بجزيرة أبا، كان صاحبنا قد رقي إلى «حامل راية» فقد اجتاز الدورة التدريبية وأصبح «حوارا» متفرغاً بالخدمة «المستديمة».

كانت رحلة العودة بطيئة وخطاها متمهلة وقطعت المسيرة عشرات المرات حيث توقف الشيخ استجابة لدعوة أهالي القرى لاستضافته والتبرك به.

وبقدر الراحة النفسية التى أحس بها عبدالله والحبور الذي غمر جوانحه، تزايدت متاعبه الجسدية، فقد بلى نعلاه، وصودر منه عنصر الراحة الوحيد، حماره الاشقر، رفيق الرحلة الطويلة، فقد أخذه أحد المقدمين لحمل رجل مريض. فحمل متاعه القليل على كتفيه بيده اليسرى واحتضن الراية بيمناه.

أين ذهبت حربته الطويلة؟ كان استبدال الحربة بالراية رمزاً لمرحلة مختلفة في حياته.

(١٧) محمد عبدالرحيم - ص ٦٣

٧

جزيرة بين بحرين

((أبـــا))

تجاهل بروس في سعيه لاكتشاف منابع النيل الابيض بحاله . فباقترابه من قرية الخرطوم القديمة ، تعمد أن يتجاوز مقرن النيلين متحاشيا رؤيته رغماً عن احتجاج أدلائه وخبرائه وتأكيدهم له بأن هناك نهراً كبيراً ينحدر من الجنوب ويلتقي بأباي الكبير الذي تتبعه خطوة خطوة من منبعه في الهضبة الاثيوبية . ولعل خطأ الرجل لم يكن بتلك الجسامة التي يبدو بها . فبحساب حجم المياه المتدفقة ، يقذف النيل الأزرق بستة اسباع مياه النيل السنوية في أشهر الفيضان القصيرة . الا ان توأمه الكسيح ، والذي يضرب به المثل في تسطح الشخصية ورتابتها (مثل بحر أبيض لاعرق ولاموج) له أيضاً صولات وجولات ، وفتوة وعنفوان يدهشان المرء إن وقف على شاطيء بحر الجبل في بور أو منقلا : —

تيار عنيف سريع يمور بالمياه المتدفقة طوال أشهر العام ، يتبدد معظمها بعد اميال قليلة ، حين تصيبه لعنة السدود فيتوه فيها مسافات طويلة ، يخرج بعدها كهلاً ثقيل الحركة ، مسطح الشاطئين ، أشبه ببحيرة متسعة تتناثر وسطها جزر عديدة ، أكبرها على الاطلاق جزيرة أبا .

تمتد جزيرة أبا لأكثر من خمسة وثلاثين ميلاً . وقبل أن تمتد إليها يد العمران والاستثمار الزراعي الضخم في هذا القرن ، كانت أشبه بكتلة من الاحراش والغابات والحشائش الكثيفة ، اقتطع منها سكانها مساحات صغيرة لزراعة الذرة والخضروات . وفيما عدا القرية الصغيرة وتلك الحقول الزراعية ، لم يكن يميز الجزيرة عن الجزر الاخرى إلا ثلاثة معالم صغيرة : مرسى صغير للمراكب والبواخر على الشاطيء الشرقي

ومنجرة لصناعة المراكب ادارها محمد ، شقيق الشيخ محمد أحمد الاكبر ، وكهف صغير يطل على الشاطيء اشتهر فيما بعد (بغار المهدي) كان يمضي فيه الشيخ محمد أحمد أياماً طويلة متعبداً متأملاً .

لم تكن أبا بأطيب مثل لمدن القوافل (١) التجارية التي تنتشر منها الدعوات الكبيرة . ولكن موقعها الجغرافي كان مثالياً . فالنيل الأبيض مسرح للتحركات الضخمة من تجار ومغامرين وحشود عسكرية تتجه جنوباً نحو قلب القارة البكر ، ورياحه الهادئة تدفع شمالاً بمئات المراكب المحملة بخيرات كردفان ودارفور ، وإلى الشرق كل الجزيرة بثرواتها الزراعية وكثافة سكانها وطرقها الصوفية العديدة التي نشأت منذ سلطنة سنار .

كان عدد سكان قرية أبا قليلاً ، نمازج تمثل تكوينات قبائل النيل الأبيض حولها خير تمثيل ، فقليل من دغيم وقليل من العمارنة ومثله من الحسناب .

وكان لعشيرة المهدي مركز الصدارة في ذلك المجتمع الصغير ، فشيخ (الدين) منهم وشيخ (الحلة) منهم . (٢) كان الشيخ محمد أحمد على رأس الهرم ، تلاه شقيقه محمد الذي تكفل بتدبير متطلبات المعيشة اليومية المتواضعة من الهبات ونتاج المزارع الصغيرة وما درته منجرة المراكب من ربح قليل .

أما الشيخ أحمد شرفي ، صهر المهدي ، فقد كان شيخ (الحلة) وربما كان هو السبب أصلاً في اكتشاف (٣) الشيخ محمد أحمد لمزايا الجزيرة ، حين وفد إليها بعد زواجه من فاطمة أحمد شرفي وأدرك مزاياها كمنطقة نفوذ خاصة بعيداً عن شيخه

---

(١) العقاد - العبقريات الإسلامية — طبعة بيروت ١٩٦٨ ، ص ٧٤ .

(٢) اوراق علي المهدي ص ٨ .

(٣) قدال ص ٤٤

محمد شريف بعد أن اشتهر أمره وذاع صيته . وسرعان مالحق به اخوته فوجدوا فيها (جنة) أخشاب مثالية لصنع المراكب (٤) ، مهنة العائلة ، ثم توالى وصول بعض عشيرة الشيخ ، أمثال ابو هداية عم المهدي ومحمود عبدالرحمن (ثري الجزيرة) (٥) ، وتدعم مركزهم في المجتمع المحلي بعد زواج محمد شقيق المهدي بابنة المك علي من قبيلة الدينكا ، سادة الجزيرة الأصليون (٦) .

ولاشك أن الوافد الغريب قد أحس بفقدانه لبعض الأرض التي كان قد كسبها بجده واجتهاده منذ لقائه بالشيخ ، فالألفة السريعة التي تولدها مشاق السفر بين الرفاق تبدلت حين وصل لأبا . فهنا مجتمع مستقر لايخلو من الطبقية الراسخة . وقد حدث سلاطين (٧) عن تعاسته في مقره الجديد بأبا . فقد أقام في كوخ بعيداً عن الشيخ ، وافتقد رؤيته اليومية التي اكتحلت عيناه بها طيلة رحلة العودة . ثم اصيب بدوسنتاريا حادة ألزمته الفراش لأسابيع وبعدها أصيب بصدمة أخرى : فقد طال انتظاره في إحدى الليالي لعودة علي ، صديقه ومدربه الذي لازمه ممارضاً وشاركه الاقامة في نفس الكوخ . تحامل على نفسه رغم المرض ونهض متثاقلاً سائلاً بعض الماء ليروي ظمأه وعندها علم بالنبأ الاليم : فقد ذهب علي ليجلب بعض الماء من النهر وإذا بتمساح متربص ينقض عليه ويختطفه ويلتهمه في ثوان . عاد عبد الله إلي كوخه والألم يعتصر جانبيه والمرض تزداد وطأته وأمضي بضعة أيام طريح الفراش مهملاً .

منذ وصوله لأبا لم يقابل الشيخ . وطيلة فترة مرضه لم يعده . أين إحساسه الداخلي القوي بأنه وقع موقعاً خاصاً من نفس الشيخ ، وبثقل نظراته النفاذة تخترق

---

(٤) الكردفاني ــ هامش الدكتور أبوشليم ص ٨٨ .

(٥) يعزو الصادق المهدى اسم (أبا) إلى أن المك علي الدينكاوى كان يمنع دخول القبائل المجاورة للجزيرة للمرعى فسارت العبارة المك أبا ــ أي منع ــ الصادق المهدي ــ الجزيرة أبا ص ١ .

(٦) المك علي ــ الصادق المهدي ــ الجزيرة أبا ص ١ .

(٧) SLATIN, P 130

ظهره طيلة مسيرة العودة وهو (٨) يحمل العلم أمامه . ولكن أين الشيخ ؟ أهذا بر الشيخ بالأوفياء من تلاميذه في محنتهم وهو الذي لا ينفك يعظهم ويحضهم على فعل الخير والشفقة وحسن الخلق ؟

وللحظة خاطفة خيل إليه أن هذيان الحمي صور له الشيخ واقفا يسد باب الكوخ بقامته المديدة . ولكنه لم يكن هذياناً ، فهذا هو الشيخ بلحمه ودمه يتقدم إليه ويجلس على الأرض بجانب حصيرته . قدم الشيخ للمريض قدحاً من المديدة قائلا : « أشرب من هذه وستبلغ الصحة ان شاء الله » . « وما أن رشفت المديدة حتي أحسست بدبيب الصحة والعافية يجتاح أوصالي التي انهكتها الحمى ... »

وهذه المرة أخطأ عبدالله في حدسه ، فتجاهل الشيخ الذي ظنه امتداداً لفترة الاختبار كان سببه ببساطة أنه لم يعلم بمرضه إلا أخيراً . فبعد زيارته وجه بنقل عبدالله إلى كوخ آخر قريب من كوخه . كان كوخ الشيخ نفسه بسيطاً لاتميزه عن بقية الاكواخ إلا نظافته المفرطة « وقد تحسنت حالتي باطراد إذ اصبحت أراه يومياً وهدأت افكاري المضطربة . فقد كان نور عيني ».(٩)

منذ تلك الزيارة كثر تردد الشيخ على عبدالله . وفي تلك الزيارات جمع الشيخ حصيلته الكبرى من معلوماته المفصلة عن كردفان ودارفور مسرح نشاطه القادم : عن مدنها (١٠) وقراها وقبائلها وشيوخها . وكان الشيخ قد زار كردفان زيارة خاطفة ضمن سياحته المتواصلة وترك فيها بصماته ، وأصبح له مريدون ومعجبون وبالأخص بعد حادثة زواج الغلام الشهيرة ، ولكنه لم يتوغل فيها إلى أبعد من الأبيض حاضرة كردفان ، ولازال عالم غرب كردفان وكل دارفور عالماً مجهولاً لديه .

Bremen the Mahdi of Allah p. 96 (٨)

SLATIN, 131.. (٩)

(١٠) نفس المصدر . P.132

بلغ عبدالله قمة حبوره وسعادته فقد أصبح قريباً من الشيخ . ولا شك أن تأثيره عليه بدأ يتضح رويداً رويداً ، فقد أخذ الشيخ يرنو بعينيه غرباً مديراً ظهره للجزيرة ، مركز نفوذه ونشاطه في السنوات السابقة .

وفي تلك الأيام أسر الشيخ بسره الخطير إلى رفيقه . « فهو المهدي المنتظر الذي طال انتظاره » « وكنت أعلم أنه المهدي المنتظر منذ أن وقعت عيناي عليه ، وأنني أول من اطلع على سره العظيم » .

ولا بد أن نغمة الحديث بينهما تغيرت منذ ذلك اليوم ، وأصبحا ينظران لكردفان ودارفور بمنظار جديد يخضعهما لخطط طويلة المدى لاعلان الثورة وما يترتب عليها من مواجهة حاسمة ، عاجلاً أو آجلاً مع الحكومة .

وقد تمخضت مشاوراتهما واحاديثهما الطويلة عن قرار حاسم . وهو البدء في العمل فوراً ، فشرع الشيخ في التأهب لرحلة استكشافية طويلة يلتمس فيها على الطبيعة ما حدثه به صديقه .

ومنذ اللحظة التي كاشفه فيها المهدي بسره ، وهو أول (١١) من باح له به قبل زمن من كشفه للآخرين ، نصبه الرجل الثاني في الحركة الناشئة ، حتي قبل أن يصدر مناشيره العديدة التي تؤكد (١٢) مكانته ، وكلما مضت الأيام وتعاقبت الأحداث كانت مكانته تزداد رسوخاً وثباتاً . وأول تلك الأحداث أن الشيخ عندما شرع في رحلته الثانية للأبيض لم يتجه إليها مباشرة أو إلى إحدى المدن الكبيرة أو تجمعات القبائل

---

(١١) المرشد إلى وثائق المهدية ــ وثيقة رقم ٧٨ ص ٤٢ .

(١٢) أولها بالطبع ذكره بأن المهدية كانت ستأتيه في الاربعين ولكن تقدمت سنتين ، أتته وهو في الثامنة والثلاثين من عمره نظراً لقدوم عبدالله إليه .

الكردفاني ص ٩٤ ــ حاشية الدكتور أبو سليم ــ علي المهدي ص ٢ .

اتجه أول ماأتجه إلى (١٣) أبوركبة حيث خلف عبدالله عشيرته . كان عبدالله مهندس رحلة كردفان الاستكشافية بلا منازع .

ومع تلك المكانة الرفيعة التي بلغها الوافد الغريب من نفس الشيخ إلا أنه ظل مع ذلك جسماً غريباً في مجتمع الجزيرة وبين رفاق الشيخ القدامى . وبالطبع كانت عشيرة الشيخ أكثرهم ريبة وتبرماً منه . وكلما زاد التصاقه بالشيخ ووضح تأثيره القوي كان يزيد ضيقهم واستيائهم منه (١٤) (١٥) . ومنذ ذلك الزمن المبكر بدأ الاحتكاك بينهما .

كانت كردفان شيئاً آخر غير دارفور . فإن كان انتشار فكرة المهدي المنتصر في دارفور تعبيراً عن طموح سياسي ، ففي كردفان كانت تعبيراً عن رفض لظلم اجتماعي (١٦) وطبقي صارخ . وقد اسهب المعاصرون من سكانها امثال يوسف (١٧) ميخائيل في وصف فداحة الضرائب والفساد المالي والاخلاقي الذي انحدرت إليه مدن كردفان ، وخاصة الأبيض ، حين تطورت إلى مدينة أسواق ذات أهمية اقتصادية كبرى ، برزت فيها كل التناقضات الطبيعية بين البدو اصحاب المواشي وزارعي المحاصيل وجامعي الصمغ وبين البيوتات المالية التي سيطرت على التجارة واحتكرتها ، وعلي رأسها جميعاً إدارة محلية لاهم لها غير تكديس الاموال بالرشاوي والفساد الإداري ، مكنها من الانغماس فيه بعدها عن مراقبة الخرطوم .

* * *

عبر الشيخ النيل الأبيض إلى كردفان وفي معيته عدد قليل من بينهم عبدالله . كانت ابوركبة محطة توقفهم الأولى حيث زاروا عشيرة عبدالله فالتأم شمله بعائلته التي

---

(١٣) SLATIN

(١٤) الشيخ محمد عوض .

(١٥) ابراهيم فوزي ص ٧٥ .

(١٦) شقير ٦٤٣ .

(١٧) يوسف ميخائيل ص ٢٦ .

طال غيابه عنها . كانت الامور قد استقرت بيعقوب الذي خلف والده في المسيد وانتظمت الدراسة في الخلوة التي استضافوا فيها الشيخ ورفاقه لبضعة أيام باح لهم اثنائها الشيخ بسره ، ولكنه طلب منهم الكتمان إلى حين نضوج الأمر (١٨)

شد ركب الشيخ الرحال إلى الابيض وفيها وفي طريقه إليها ، اتصل بأغلب الشخصيات الهامة أمثال ميرغني (١٩) سوار الدهب والياس باشا أم برير (٢٠) (٢١) والسيد المكى وزعماء القبائل من حولها امثال الفكى المنا ، وأطلعهم جميعاً على نواياه وكسب تأييدهم المبدئي الذي تفاوت بين الحماس لإعلان الدعوة فوراً ، والتوسل لامهالهم فسحة من الزمن للتأهب للأمر .

شاهد بعينيه وسمع بأذنيه وأدرك بإحساسه الصادق كم كانت كردفان ودارفور تربة متعطشة تنتظره ليسقيها دعوته الجديدة . وكثيرون ممن أرخوا (٢٢) لسيرة المهدي يؤكدون أن زيارته الثانية التى مسح فيها كردفان كانت منعطفاً هاماً في مسيرة الدعوة ، فلم يمض الا زمن يسير بعد عودته منها حتى أعلن دعوته على الملأ متحدياً الحكومة وجيوشها وهو كله ثقة بنتائج مخاطرته المحسوبة ، وكان الترصد وسبق الاصرار بيناً للدرجة التى حدد فيها الملاذ الامين الذى سيلجأ إليه بعد اعلان الدعوة : منطقة جبال النوبة المنيعة ، فليس هناك ما يشككنا فى رواية عبدالله نفسه من أن زيارتهم للجبال واسرارهم بالدعوة للملك آدم (٢٣) أم دبالو كانت تمهيداً للأحداث التالية « وقد صرح الخليفة لجلسانه في المحراب بعد توليه الخلافة أنه لم يكن قصد محمد أحمد من هذه السياحة استطلاع الناس في دعواه فقط بل كان القصد منها كشف البلدان

---

(١٨) SLATIN - 131

(١٩) HILL P 239

(٢٠) شقير ٣٦٩

(٢١) HILL P 334

(٢٢) قدال ٦٦

(٢٣) OHRWOLDER PP 95- 102 -223

التى تصلح للهيجان وشن الغارة وانه منذ ذلك الحين اختار جبل قدير مركزاً لهجرته (٢٤).

وطيلة رحلته لكردفان لم يفارقه عبدالله، وإن كانت المصادر لم تشر إليه بكلمة واحدة، مما يجبرنا (٢٥) على الوقوف هنيهة وايضاح بعض الامور عن سير قصتنا:

فمنذ اللحظة التى قابل فيها عبدالله الشيخ محمد أحمد في طيبة، تشابكت الشخصيتان لدرجة أصبح التمييز بينهما وفرز عطاء وأداء كل منهما على حدة امراً بالغ الصعوبة، وخاصة فيما يتعلق بعبدالله. وعلى الرغم من الغموض - المتعمد احياناً - الذى أسدل على حياة عبدالله الاولى، إلا أن الامر كان أسهل فى تتبع مراحل حياته المبكرة، بغض النظر عن غزارة المصادر أو ندرتها، فقد كان كياناً قائما بذاته.

ولكن فى الفترة التى تلت لقاءهما وحتى وفاة المهدي، لايبدو فيها عبدالله على المسرح إلا لماماً، بالرغم من وفرة المصادر وتنوعها، وهو أمر طبيعى، فالدعوة والاحداث الجسيمة التى ترتبت عليها انصهرت كلها في الامام - بكل فردية الامامية، وتضاءل الحديث وتخافت عن الشخصيات الأخرى مهما كان اسهامها عظيماً كاسهام عبدالله، مما يجبرنا على استقراء المصادر والأحداث، وبذل الجهد لاستخلاص وتمييز اصابع عبدالله في تحريك الامور. وقد هان الأمر قليلاً عندما تفجرت الأحداث في العامين العاصفين التاليين واصبحت سلسلة لا تنقطع من العمليات العسكرية، هنا نستطيع أن نفرز عطاءه، فهو أمير جيش المهدية، أما فيما عدا ذلك فالأمر بالغ الصعوبة وبالاخص في فترة سرية الدعوة، حين اقتصر الأمر على الاتصالات والمنشورات والمجادلات الدينية والتجنيد للمريدين على أساس ديني مقنع - تلك كانت أرضاً لايحسن عبدالله السير فيها.

---

(٢٤) شقير ٦٤٤.

(٢٥) حتى في الروايات السماعية لم يرد اسمه قط فيما عدا القصة الشهيرة المتداولة بأن سوار الدهب مضيفهم كان يعامله بغلظة و انه اسرها فى نفسه سنيناً طويلة

إن الاحداث التى تلت عودة الشيخ من الابيض ، وهى إعلان دعوته للمهدية والملابسات التي أحاطت بها ، معادة ومكررة حتى في كتب المدارس ، فيحسن بنا أن نمر عليها مروراً سريعاً .

كانت المبادرة من جانب الحكومة ، فبعد عودته لأبا كثف الشيخ من اتصالاته المكتوبة والشفهية (٢٦) (٢٧) ولم يكن من الممكن أن تتم كل تلك الاتصالات وبالأخص المكتوب منها ، دون أن تشتم الحكومة رائحة الامر ، وللشيخ أعداء وحساد سارعوا بتنبيه الحكومة الغافلة ، وأولهم كان شيخه السابق محمد شريف نورالدائم . ولكى يحسم الحكمدار الامر ويريح باله من صداع ومشاكسات شيوخ الدين المتكررة والتي لا يفهم في أمورها شيئاً ، ولكنه يعلم أن كسبهم الى جانب الحكومة من حسن السياسة والحكم ، أخذ المبادرة بيده و بعث بوفد لاقناع الشيخ بالحسنى بترك ماهو فيه .

وكلنا يعلم ما حدث عند مقابلة الشيخ لوفد أبو السعود : فقد قذف الشيخ بالقفاز فى وجه أبو السعود والحكومة متحدياً قال (٢٨) « نعم ... أنا (٢٩) المهدي (٣٠) ، ونعم ، ليس للحكومة سلطة علي ولا أعترف بها » ومنذ تلك اللحظة دخل الشيخ محمد أحمد التاريخ باسم المهدي . ومن جانب آخر سارع أبوسعود للخرطوم وهو لا يصدق النجاة بجلده وأبلغ السلطات المركزية أن الامر أكبر مما يظنون ، وأن الوسيلة المثلى لمعالجته ليست وفود الاقناع والنوايا الحسنة والكلام المعسول ، بل تجريدة عسكرية مسلحة بالمدافع والبنادق لجر الشيخ إلى الخرطوم جراً والقضاء على الأمر قبل أن يستفحل .

---

(٢٦) HOLT,P.145

(٢٧) المرشد الى وثائق المهدية . أبو سليم ص ٦ ، ٧ .

(٢٨) الكردفانى ص ١١٨ .

(٢٩) شقير

(٣٠) ابراهيم فورى .

عين أبوالسعود قائداً للتجريدة التأديبية وخصصت الحكومة سريتين للمهمة على رأسيهما الصاغ إبراهيم (٣١) علي صهر الحكمدار ، والصاغ عمر عزمي . وحمل الجنود على باخرة نيلية مضت تشق عباب النهر بتؤدة نحو جزيرة أبا .

* * *

ما الذي بدل حال المهدي وصديقه فجأة وجعلهما يتحرقان شوقاً إلى صدام مسلح مع الحكومة وقد كانت دعوتهما السرية في مد مستمر ، تكتسب أراضى جديدة كلما أشرق عليها صباح جديد ، هل اكتملت الاستعدادات أم أصبح لامفر من الصدام بعد أن انكشف الأمر ؟ هناك عدة ظواهر تدل على أن الاحتمال الأول أقرب للصواب . فبدلاً من تلك المواجهة العنيفة مع أبو السعود كان بوسع المهدي أن يصمت أو يرفض المقابلة . ثم أنه بعد اقلاع أبو السعود سارع في اليوم التالي إلى مركز الكوة وأرسل برقية للحكمدار نفسه متحدياً (٣٢) وحاثاً إياه على المواجهة إن كان في نيته التأني والتروي . بل إن أبوالسعود وهو يودعهم التفت إلى أبوهداية محذراً وهو يدعي الشفقة على كبيرهم « إن الحكومة قوية وسترسل إليكم قوة تقبضكم كالأغنام » (٣٣) ورد عليه الاخير قائلاً « هذا إن ظفروا بنا » اذن كانت النية مبيتة على الهجرة غرباً إلى أراضي منيعة . « فان ظفرتم بنا » تعنى الانتصار أو الافلات وهو ما حدث بالضبط .

كان صديقه يعلم أن مصداقية المهدي لأهل الغرب هي النصر العسكرى فهو « الذى لاتهزم راياته ابدا » وأن خير وسائل الدعاية بين قبائلها البدوية المشاكسة هى أسنة الرماح القانية ، وليست صحائف المنشورات المسودة .

بينما كانت الباخرة المحملة بجنود الحكومة تتهادى في طريقها لأبا لاقتناص الشيخ ، استغرق الشيخ واتباعه في نشاط محموم استعداداً للمعركة المرتقبة والتي حددوا هم توقيتها وميدانها .

---

(٣١) محمد عبدالرحيم – النداء فى دفع الافتراء ص ١٣١ .

(٣٢) على المهدى ص ١٢ .

(٣٣) على المهدى ص ١١ .

فقبل أيام بعث الشيخ مستنفراً ومستنجداً بالقبائل (٣٤) المجاورة على الشاطئين. تجمع لديه ما يزيد عن ثلثمائة رجل (٣٥)، وهم نواة جيش المهدية الذى نما ليصبح أمنع جيش وطني في كل افريقيا.

كان التكوين القتالي بسيطاً وسهلاً، استوحاه من تنظيمات الطرق الصوفية، فقد قسمهم المهدي إلى خمس رايات، انضوى تحتها اكثر من ثلاثين (٣٦) مقدماً كل منهم على رأس عشرة رجال، سلحوا جميعا بالاسلحة البيضاء.

أما مسرح القتال فقد كان تخمينه سهلا وتغطيته بالرجال ميسوراً، فهدف حملة أبو السعود هو بيوت القرية في وسط الجزيرة فكمن المدافعون في الطريق المؤدي الى القرية.

ألقت الباخرة بمرساها، ودخل الجنود إلى الجزيرة ليلاً، وهو الخطأ الأو ل، فلو تمهلوا حتى الصباح لسهلت مهمتهم كثيراً. تدافعت السريتان نحو القرية كل بمحور مختلف - وهو الخطأ الثانى، ويبدوا أن مبعثه التنافس بين (٣٧) قائدى السريتين للفوز بالجائزة التى وعدهم بها الحكمدار لمن يظفر بالمهدي.

وطيلة الاستعدادات المحمومة التي سبقت المعركة وأثناء احتدامها لم يفارق عبدالله المهدي لحظة واحدة، وكان هو الوحيد الموجود معه خلال المعركة فى مركز قيادته المكون من تعريشة صغيرة كمن تحتها المهدي على صهوة جواده « ولكن طلب خليفته

---

(٣٤) الكردفانى ص ١٢٥.

(٣٥) HOLT,P.47

(٣٦) على المهدى ص ١٣.

(٣٧) السودان المصرى و الانجليز ص ١٦٣.

مجموعة رسائل لاحد أدباء مصر (بدون ذكر اسم) مطبعة الاهرام بالاسكندرية ١٨٩٦

الأكبر أن ينزل منه فأراد أن ينزل فقال بعض الحاضرين من الاصحاب لا تنزل ياسيدي لأن الوقت مطر وطين وظلمة . فالاولى أن تكون على الفرس ، فنزل المهدى كما طلب خليفته الأكبر ، فساعة نزوله منه أتت الرصاصة من العدو فضربت الفرس المذكور حتى وقع (٣٨) على الأرض ... » ولكنها لم تكن الرصاصة الوحيدة ، فهناك أخرى كادت أن تصيب مقتلاً (٣٩) ، وسببت جرحاً للمهدي في منكبه الأيمن ، فسارع رفيقه الوفي بتضميد الجرح وإخفائه حفاظاً على معنويات المقاتلين .

وفي كل معارك المهدية وسنواتها العاصفة التى تلت ، لم يمض عليها يوم حاسم كذلك اليوم . فلو ظفرت الحكومة بالرجل في ذلك اليوم لاندثرت حركته وقُضي عليها قضاءً مبرماً وأشارت إليها كتب التاريخ إشارة عابرة بحسبانها إحدى الانتفاضات المتقطعة الكثيرة التي حفل بها سودان القرن التاسع عشر . فهل نحاول أن نستخلص دوراً لعبه بطل روايتنا في ذلك اليوم الحاسم ؟

للوهلة الأولى يبدوا لنا دوره ضيئلاً .فأولاً كان الرجل وحيداً لا تسنده عصبية قبلية ، ولاتزعم حشداً يذكر ، فالرجال الذين خاضوا معركة أبا كانوا غريبين عنه .

ثانياً ، كانت قسمات الصوفية بارزة للعيان في التشكيل القتالي لجيش المهدي . فاسماء الرايات ومراتب وتقسيمات « شئون الافراد » مستمدة كلها من تقاليد ونظم الطرق الصوفية لأرض النيلين : فراية الشيخ الجيلاني ثم الرفاعي ثم البدوي والداسوقي ... الخ . نظم وتقاليد ترسخت منذ سلطنة الفونج ولم يكن عبدالله من المتبحرين فيها ، ولا كان من رأيه أنها التقسيمات المثلى لخوض المعركة .

---

(٣٨) الكردفاني ص ١٢٨

(٣٩) محمد عبدالرحيم : النداء في دفع الافتراء ص ١٣٢

ولكن العين المدققة قد ترى دوراً أعظم لعبدالله من وراء الستار ، فهو الوحيد الذي كان في مركز القيادة مع المهدي ، وبلغ من نفوذه أنه أقنع المهدي بالترجل من صهوة جواده وضمد جراحه حين جرح .

ثم أن ساحة النزاع ، جزيرة أبا ، كانت كتلة من الاحراش والأشجار المتشابكة والحشائش الطويلة ، أشبه ما تكون بمراتع صباه وميادين قنصه في رجولته ومغامراته في جنوب دارفور وبلاد الجانقي ، أراضي يحسن الحركة والقتال فيها ، وطال اشتياقه لها بعد عبوره لأرض الجزيرة المسطحة المملة . لقد وجد نفسه بعد طول غربة : الحشائش والأشجار الغزيرة والتربص والسيوف والحراب ، بعد جلسات الخلوة الطويلة .

وفوق هذا وذاك كان مخطط المهدي الذي نفذه بنجاح أقرب إلى كمين محكم كله تربص وخداع ومفاجآت محسوبة بدقة ، ولم تكن أفعال حفنة من الرجال المتعصبين المتهورين ، بل كانت أقرب لأداء مقاتلين متمرسين . وفيما عدا المهدي نفسه ، باطلاعه على معارك التاريخ العسكري الإسلامي ، كان عبدالله أكثرهم تأهيلاً ، بل ربما الوحيد ، بحكم بيئته وخبرته ، لوضع ذلك المخطط الذكى .

٨

الجبال ... والرمال

أفلت العصفور من القفص . غادر المهدي أبا و عبر النيل الأبيض خلسة في ليلة ١٩ أغسطس ١٨٨١ ، مدركاً أن أعداء ه لن يتركوه طليقابعد فعلته بهم . حقق اهداف المرحلة : نصر عسكري حاسم يملأ الأسماع وتتداوله الألسن ويدعم منشورات الدعوة السرية في طول البلاد وعرضها ، وينقلها إلى مرحلة حاسمة توسطت مسيرة الحركة المتقلبة ، بتدبير محسوب ، بين العمل السري ثم التحرش ، فالمواجهة ، ثم تحاشيها والإنسحاب غرباً إلى قدير بمنطقة جبال النوبة .

تمتد تلك المنطقة إلى مئات الأميال ، سلسلة من التلال أشبه بالحدائق المعلقة ، فخصوبة التربة ووفرة المياه كست رؤوسها بخضرة كثيفة من المراعي والمزارع والغابات وميزت سكانها بوداعة وبساطة لازمتهم رغم الغارات والهجمات الجائرة التي تعرضوا لها فى كل العهود ، وفتكت بهم فتكاً ذريعاً ، ولم تبدل كثيراً من السمات الحضارية التي حملوها من موطنهم الأول في بلاد النوبة ، وشهدت عليها بقايا القلاع المتناثرة في الجبال ، وتراثهم الفولكلوري المتلون من أهازيج ورقصات ، واثرتها الهجرات التبشيرية والتجارية لقبائل السودان الشمالي وبالأخص الجعليين ، الذين تمازجوا مع السكان الأصليين فتناثرت الدويلات والممالك المسلمة وغير المسلمة في قمم التلال وسفوحها ، تزعمها عشرات من المكوك والشيوخ تفاوتت درجات استقلالهم الذاتي عن الحكومة المركزية ، ولعل اسم أحد الجبال التي لجأ إليها المهدي ، جبل (بطن أمك) يعبر أصدق تعبير عن الملجأ الحصين الذى كان يبحث عنه ووجدوه له فأسرع إليه لائذاً .

وكالعادة تخافت دور عبدالله وسط زحمة الأحداث المرتبطة بصاحب الدعوة . ورغماً عن غزارة الوثائق والمصادر التي تروي أحداث كردفان لا نتبين اسم عبدالله إلا

في شذرات ولمحات قصيرة يسطع فيها اسم صاحبنا ويلمع بين اسماء مئات القادة والزعماء. ولعلنا لن نجد صعوبة في حصر تلك الشذرات ، وهي تقريباً كل ما أوردته المصادر المعروفة عن عبدالله خلال أعوام كردفان .

أولها بالطبع ما حدث في مجلس الحرب المنعقد في عشية المعركة ، فقد كان أول الناصحين للمهدي بالانسحاب من أبا (١) . واشتراكه في النصح والنقاش العلني لاينفي بالطبع تداولهما (٢) في الامر منفردين وتبييت النية عليه ، ربما قبل واقعة أبا . فالأمر كله يبدو متسقاً في نطاق خطة مدبرة . ربما كان الصدام الدموي فيها مقدمة الانسحاب ، ولم يكن الانسحاب فراراً من تبعات المعركة .

كانت رحلتهم للجبال شاقة عانوا فيها ما عانوا حتي حلوا بجبل قدير .

وفي فترات الاستقرار البسيطة التي نعموا فيها بالراحة بين الاشتباكات والمعارك المتصلة مع بعض ملوك الجبال الذين رفضوا الجسم الغريب الوافد ، أو صداً لهجمات الحكومة ، لم يهنأ صاحبنا بالعيش ، فقد كانوا قلة من الرجال تعرضوا لفتك الجوع والأمراض وبرودة الجبال القارصة ورطوبتها ، فإلى آخر ايامه ظل عبدالله يذكر تلك الايام : « لما بلغنا قدير كنا في غاية الاعياء بعد هذا السفر الشاق الطويل . وكان للمهدي فرس واحد من تلك السلالة الحبشية الرديئة ، أما أنا فقد سرت المسافة كلها تقريباً على قدمي ، ولكن الله يهب القوة للمؤمنين الصادقين الذين يسلمون انفسهم وما يملكون لأجل الايمان . وكان اخواتي يعقوب ويوسف والسماني قد انضموا الينا وكذلك زوجة أبي التي كانت ترضع إبني على صدرها ولم يرض اخي هارون البقاء فأتى معنا

---

(١) slatin p. 137

(٢) CHURCHILL , VOL , I , P. 48

أيضاً ، وكنت على الدوام في قلق بشأن اخوتي وزوجة أبي وعائلتي وابني الذي تراه ، عثمان شيخ الدين . ولم تكن مشاق السفر تهمنا نحن الرجال فإن المصائب والكوارث تأتينا من عند الله الذي اصطفانا لنعلي كلمته ونرفع دينه الذي ديس فى التراب وكنا نعلم اخواننا ولكن (وهنا كان يبتسم) تعليم الدين لم يكن ليأتينا بالطعام لأولادنا ونسائنا وكان الناس يهرعون الينا زرافات ، ولكنهم كانوا أشد فقراً منا . والاغنياء كانوا يتجنبوننا ... وذلك القليل الذى حصل عليه المهدي كان يوزعه على المهاجرين الفقراء ، فقد كان يعتبرهم ضيوفاً ... وكانت نياط قلبى تتقطع وأنا أستمع لعويل النساء والاطفال الجائعين ... (٣) .

ولا ريب أنه كان للحاق اخوته به وعلى رأسهم يعقوب ، بمواهبه المتعددة ، أثر واضح فى تقوية شوكته . وقد كان حتى ذلك الحين وحيداً لا سند له سوى حب المهدي وتقريبه له . فبينما كانوا يحطون رحالهم في أبورجلين (٤) بجبال تقلى حل عليهم يعقوب متقدماً كل عشيرة عبدالله التى تركها فى دار الجمع ، ثم تتابعت الوفود من دار التعايشة : يونس الدكيم وحمدان أبوعنجة وأحمد وحامد علي . ولابد أن حرارة استقباله للمقاتل الشهير وأمهر رماة دار التعايشة تناسبت مع تلهفهم لحنكته القتاليه وذراعه المفتول الذي لا يخطئ المرمى ، وهم يخوضون معاركهم المصيرية الأولى بفئتهم القليلة .

ومن ناحية أخرى تحتم عليه ، ودوره ومكانته تتعاظم يوماً بعد يوم أن يرى الآخرين أنه ليس (مقطوعاً من شجرة) خاصة وقد تكاثرت اتصالات المهدي في تلك الفترة بزعماء البلاد المشاهير في طول البلاد وعرضها . ومنذ ذلك الزمن المبكر بدأت صيحاته اليائسة إلى التعايشة بأن (هلموا وسارعوا إلي فمعي ستطرقون أبواب المجد) وكلما تزايد اعراضهم ازداد الحاحة (٥) فالشيخ محمد عوض يذكر ان الخليفة

---

(٣) SLATIN, 141

(٤) الكردفاني ص ١٤٣ .

(٥) مهدية ١ / ١٠ / ٣٨ / - ٢٩ ديسمبر ١٨٨٣ (الخليفة إلى زقل)

لهم بالوفود منذ أن كان بقدير ولم يستجيبوا له إلا باعداد محدودة وبعد سقوط الابيض(٦)(٧) .

ومن البديهى ان تتبرم عشيرة المهدي من صعود نجمه المفاجىء السريع ، وظل الخلاف يشتد مما اضطر المهدي لان يقف بجانب عبدالله مؤيداً وزاجراً كل من يتطاول عليه . وظلت عشيرة المهدي شوكة فى جنب عبدالله لازمته إلى آخر أيامه ، وهي تنمو يوماً بعد يوم حتى تفجر الموقف بالمحاولة الانقلابية المسلحة التى قادها الخليفة شـريف .

أما فى تلك الايام ، فزعيم عشيرة المهدى كان شقيقه محمد ، لم يرو التاريخ عنه كثيراً، رغم الدور الخطير الذى لعبه من خلف الستار ، ولا غرو فهو أقرب الاقربين للمهدى وشقيقه الاكبر الذى تولى ترتبيته و المدبر لامور معيشته اليومية لسنين طويلة ، الى الحد الذى جعل أحد كبار مؤرخى المهدية يصفه بأنه كان الرجل الثانى فى بداية الحركة المهدية (٨)وهناك عده مصادر تشير الى انه كان امير الجيش (٩) وامير (١٠) الراية البيضاء راية القيادة فى المعارك الأولى وحتى وفاته فى معركة الابيض . بلغ الخصام بين محمد و عبدالله حد القطيعة وعدم تبادل الحديث (١١) وطفا الى السطح فى مناسبات عديدة ، كما حدث عقب معركة الشلالى .

« بعد جمع الغنائم وتقسيمها كان حصان عبدالله ولد دفع الله المسمى (عصار) قد احضر لخليفة الصديق الخليفة عبدالله قبل تقسيم الغنائم وكان جواداً مشهوراً

---

(٦) لا شك أن الشيخ محمد عوض قد بالغ كثيراً عندما ذكر ان عدد المهاجرين الذين انضموا للمهدى من دار التعايشة بلغ اربعة وعشرين الفاً . وتلك هي آفة الرواة المعمرين وهى سوء تقديرهم للاعداد والمسافات والازمنة، وربما لم يزد عددهم عن الفين أو ثلاثة .

(٧) علي المهدي ٢٢٦ .

(٨) تحقيق الكردفاني ص ١٥٣ - ابو سليم

(٩) ابراهيم فوزي ص ٩١

(١٠) جهاد في سبيل الله ص ,٣٢

(١١) الشيخ محمد عوض

بالجودة والسبق وجمال الصورة فتحدث الناس بأنه لم يدخل في القسمة وأن خليفة الصديق استولى عليه بدون وجه حق فرأوا أخذه منه فأرسل السيد محمد عبدالله يطلب ذلك الحصان من الخليفة عبدالله فسلمه لمندوب السيد محمد عبدالله حالاً ثم أرسل يبلغ المهدي بأمره فأمره المهدي أن يرد الحصان لخليفة الصديق وأرسل لهم حصاناً من الخمس الخاص به وكانت المشكلة حساسة ودقيقة (١٢) ....»

* * *

كان الاشتباك الذى احتدم فجر ٩ ديسمبر ١٨٨١ م فى غابة مراج أول أشتباك بين الحكومة والمهدي عقب انسحابه من أبا ، وكان نقطة تحول كبيرة . فالغنائم التى جمعت من سلاح وعتاد وأطعمة وأبقار بدلت من حالة البؤس والضنك التى أسهب الخليفة فى وصفها لسلاطين .

ولسبب مبهم ، قد يكون قلة الرجال (أقل من سبعمائة رجل) أو أن حمية القتال أخذته بعيداً ، أو أن ولعه المشهور بالجياد الكريمة ، الذي كاد أن يكلفه حياته هذه المرة نجد عبدالله يتخلى عن مكانه المعهود أثناء القتال بجانب هيئة القيادة العليا الممثلة في شخص المهدي ويشارك في القتال بنفسه وببراعته وشجاعته الشهيرة :

« كان فى جيش (١٣) راشد باشا خمسة خيول أحدها حصان راشد باشا نفسه وحصان كيكون مك الشلك وحصان ابراهيم موسى حامل الراية وحصان سعد الشايقي فأعجبه وكان حصاناً دنقلاوياً طويلاً من الخيول الجياد فطارد صاحبه ليقتله ويستولي عليه وما كاد يلحق به حتى أخرج راكبه مسدسه فافرغ رصاصة على خليفة الصديق فأصابه في كفه اليمنى فحول خليفة المهدي حربته ليده اليسرى ثم غرسها فيه فخر

---

(١٢) على المهدى ص ٣٦ .

(١٣) الكردفانى ص ١٤٩ .

صريعاً وأجهز عليه وركب حصانه وقاد حصان سعد الشايقي فلحق بالمهدى وكانت المعركة قد انتهت وافتقده المهدى فأخذ يسأل عنه وأرسل من يبحث عنه في ساحة القتال وانتظر في المسجد حتى عاد خليفته وأخبره بخبر سعد الشايقي (١٤)... »

والمرجح أن النصر الباهر الذي احرزه المهدي على راشد ، والتحسن الملموس في حالتهم المعيشية من جهة ، و تزايد منعتهم العسكرية من جهة أخرى أوحت للمهدي بالشروع في وضع الخطوط الأولى لتنظيم دولته المرتقبة . وإن كان المنصب التالي منصب (١٥) الخلفاء الثلاثة ، وبالذات منصب الخليفة عبدالله ، محل خلاف ونزاع بين المؤرخين ، إلا أن هيكل الدولة وأهم مؤسساتها برز للوجود منذ ذلك الحين وأهمها بيت المال الذي أوكل امره لأحمد سليمان ، أحد المقربين من المهدي وكذلك الهيئة القضائية وعلى رأسها قاضي الاسلام والنواب القضائيين .

(١٤) علي المهدي ص ٢٥ .

(١٥) يتركز الخلاف بين الدكتور أبوسليم و المصادر الاخرى . فهناك عدد من المصادر الموثوقة بينت أن الخلفاء الثلاثة عينوا منذ أيام أبا وقدير ، وأن الخليفة عبدالله كان الرجل الثاني رسمياً بصفته الخليفة الأول منذ ذلك الزمن المبكر . هولت يرجح أن التعيين حدث بعد اعلان المهدية في أبا أي في منتصف ١٨٨١م . وسلاطين يذكر أن المهدى عين الخلفاء الثلاثة قبل انسحابه من أبا لكردفان أما الاب أوهرولدر - فيقرر أن تعيين الخلفاء اعلن بعد وصوله قدير .

اما الدكتور أبو سليم ، فيقطع بناء على وثائق المهدية والتي ربما اطلع عليها جميعاً ، بأن منصب الخلفاء الثلاثة كأعلى سلطة بعد المهدي لم يعلن إلا بعد سقوط الابيض في ٥ رجب ١٣٠٠ هـ كما جاء في خطابه للسنوسي عارضاً عليه منصب الخليفة الثالث حيث اكسبهم الشرعية باضافة لفظ الخلفاء الراشدين حسب الحضرة النبوية التي نصبتهم . وان لفظ الخليفة كان يطلق على كل أعوان المهدى الذين يقومون بالادارة العسكرية والمدنية بصرف النظر عن مكانتهم والادوار التي يقومون بها .. فهو يطلق أيضاً هذه الصفة علي من تولوا القيادة العسكرية والادارية أمثال ود النجومي ورحمة نوفل .

ثم جاء تحول كبير بعد واقعة الشلالي . فبعد هذه الواقعة اجرى المهدي أول تعديل في انظمة الدولة وبمقتضى التعديل استعمل لفظ الخليفة على الرايات الثلاث مثل عبدالله والحلو وشريف وابطل استعمالها على غيرهم . واستعمل لفظ الامير بدل الخليفة بالنسبة للقادة الصغار . ووظيفة الخليفة في النظام الجديد هي قيادة الراية فقط وقد كان المهدي هو القائد الاعلى للجيش كما هو رأس التنظيم . ويليه في المكانة والقوة شقيقه محمد =

وسواء كان (خليفة الصديق) رسمياً أم مجرد امير للراية الزرقاء ، فانه من المؤكد انه كان الرجل الثاني فعليا . فأعنة السلطة الفعلية ، الممثلة فى القدرة العسكرية من (رجال) و (سلاح) بدأت تتركز بين يديه فى الفترة المنصرمة بين معركة راشد فى أواخر ١٨٨١ وحملة الشلالي فى نهاية مايو ١٨٨٢ ، واعانه على ذلك امران :

فالغنائم « الاعلامية » التى نالتها الحركة الناشئة عقب هزيمة راشد كانت أثمن من الاسلحة و الأطعمة و الملبوسات ، فقد اضافت مصداقية جديدة لمنشورات المهدى ودعواه (الذى لاتهزم راياته ابدا) فقد سجل نصراً ثانياً ، فتدفق الرجال على قدير . وهى إن أعانت الهبات المتفرقة المنتشرة فى طول البلاد و عرضها فان أثرها كان حاسماً فى جبل قدير : فقد تضاعف جيشه من ٧٠٠ رجل الى أكثر من سبعة الاف مقاتل . واين انصب سيل الرجال الوافد ؟ انصب كله فى الراية الزرقاء ، راية أهل الغرب ، لان التعزيزات بعد معركة راشد كانت كلها تقريباً من كردفان ودارفور .

= عبدالله الذي تولى القيادة العامة . وكان خلفاء الرايات متساوين امامه .

ولا شك ان أقوى الادلة في معارضة ما طرحه ابوسليم هي أوراق علي المهدي ومصادرها ممن اشتركوا فى تلك المعارك فعلا وعاصروا تلك الفترة فهو يقول عن معركة الشلالي ، وكان امراء رايات المهدي هم السيد محمد عبدالله ويتبعه الشيخ الامين محمد وعبدالله ود النور وكان امير دغيم هو موسى ود حلو وراية خليفة الصديق يتبعها اهالي الغرب واميرها يعقوب محمد . فهو اولاً يذكر لفظ خليفة الصديق ، وقد لا تعنى كثيراً باعتبار أن المصدر يشير الى اللفظ المتداول فيما بعد ، أما الاهم فإن امير الرايه الزرقاء أثناء المعركه كان الامير يعقوب ولم يكن الخليفة عبدالله ذو المنصب الاعلى وكذلك الامر بالنسبة لموسى ود حلو المتولي قيادة راية اخيه الخضراء - إن طرح ابو سليم يعتمد أساساً على الوثائق الاصلية و التي لا تبين إلا ماذكره و هو عدم وجود دليل على توليه منصب خليفة الصديق قبل رسالة المهدي للسنوسي بعد سقوط الابيض . ووثائق المهدية كانت اشتاتاً جمعت من جهات متفرقة وربما تظهر إلى حيز الوجود في أي لحظة مجموعة أخرى تؤيد أو تنفى ما ذهب اليه .

أوراق علي المهدي - جهاد في سبيل الله ص ٢٢

HOLT P 103
SLATIN, P. 38
OHHRWALDER , P. 14

ونحن نسمع بالراية الزرقاء لأول مرة في معركة الشلالي ، ونستدل من حديث علي المهدي على كثرتها وكثافتها مقارنة بالرايتين الآخريتين ، والمرجح أن الرايات الثلاث ، الزرقاء والخضراء والحمراء ، انشئت لأغراض تنظيمية عسكرية في نفس الوقت الذي وضعت فيه هياكل الدولة من بيت مال ونظم قضائية . فحتى معركة راشد قسمت أنساق المهدي القتالية إلى قسمين : مشاه وفرسان ، وكانت الحلقة التنظيمية لموجات المشاه المصطفة في صفوف كصفوف الصلاة هي المقدمات والنقباء (عشرة رجال لكل مقدم) كما حدث في معركة أبا .

اولئك كانوا (الرجال) ، أما (السلاح) فله قصة أخرى : تجمعت بعض الأسلحة النارية عقب معركة أبا . ورغما عن عزوف المهدي منذ البداية عن استخدام الأسلحة النارية (١٦) أصر عبدالله على جمعها وحفظها وقد استخدم المهدي بندقيتين أو ثلاثة بصفة محدودة خلال حملة راشد سلحت بها طلائع الاستكشاف المكونة من فارسين . ويبدو أن تلك كانت كل فكرة المهدي عن استخدام الأسلحة النارية ، ولم يتصور أو لم يستسغ أبداً نظرية (الكتل النارية) واستخدام نيران البنادق في مجاميع قتالية ، فحتى عام ١٨٨٣ وبعد سقوط الأبيض ، وبعد أن تجمع بين يديه آلاف المأسورين نراه يصدر منشوراً غريباً ، يكرر فيه رأيه بأن النصر يكون بالسيف وليس بالاسلحة النارية : « ... إلى كافة الخلفاء والامراء وأهل الرايات وأنصار الدين ... وقد اخبرتكم مراراً بشأن سيد الوجود (صلعم) اخبرنا بأن نصرتنا بالحربة والسيف ولا حاجة لنا بالبندقية لانه لاينفعنا ولو كان ينفع أهله مع غاية تشديدهم وتأييدهم لملكهم طمعاً فى الدنيا الفانية ومع ذلك خذلهم الله تعالى ... وقد مالت نفوسكم وعقولكم إلى مثال السلاح النارى وتركتم مثال الكبس والسيف مع علمكم بما أودعه الله فيهما من السر ...إن أصحاب رسول الله (صلعم) كانت نصرتهم بالسيف وبالحربة وقد حرض (صلعم) غاية التحريض على القنا ليعمل خشباً للحراب أفهل يغفل أحد بعد هذا عن هذه الأسلحة ويلتفت لغيرها ؟

---

(١٦) ليس هناك ما يؤيد ماذهب إليه علي المهدي باشتراك جنود سود مسلحين بالبنادق في المعركة الاولى - معركة أبا .

فهذه منكم غاية الغفلة وعدم انتباه لنصرة الدين وجهاد الترك ... ثم أني لما رأيت منكم غاية الغفلة عن الكبس والسيف والانتباه في الأسلحة النارية استخرت الله تعالى على أن أخاطبكم بأمري هذا ولزم كل من بلغه من الأمراء أن يجمع كافة مقاديمه ويعرفهم بما تحرر منا حرفياً وليقم كل مقدم به على جماعته ويأخذ كل ما عندهم من السلاح الناري ولا إجازة لأحد أن يترك واحدة صغيرة ولا كبيرة ويصير درج سلاح كل أمير بموجب قائمة واضحة البيان تتضمن عدده للمفهومية ويكون جميع ذلك بمعرفة خليفة الصديق أو من ينوب من طرفه لذلك حتى ومن بعد جمعه ننظر ما يدبره الله ورسوله في أمره ... والمقصود غاية التشمير فيما ذكر مع بذل همتكم في الاشتعال بالحراب الكبسية والسيوف البلدية وصرف العقول عن الأسلحة النارية (١٧) .»

وهناك عدة تفسيرات لاصدار هذا المنشور : أولها ايمان المهدي بنظرية (صدمة السلاح الأبيض) و هو المتشرب بالتاريخ العسكري الاسلامي وانتصاراته ، والأمر ليس كله خطأ (أو رجعية عسكرية) كما يظن للوهلة الأولي ، فالمدى المؤثر للبنادق في ذلك الحين لم يزد عن مائة أو مائتي متر، واذا مابلغت موجة من المقتحمين الشجعان المصممين مسرعي الخطى إلى ذلك المدى ، فالاحتمال كبير في أن يكتسحوا الخطوط الدفاعية لاعدائهم ، أو أن تحدث الصدمة النفسية أثرها قبل أن يلتحموا بهم فيلوذون بالفرار، وما الذي سيحققه التراشق بنيران البنادق غير ابطاء اندفاع الهجوم وعرقلة انسيابه وتدفقه ؟

أما التفسير الثاني فهو أن القيادة العسكرية المناوئة للخليفة ارتابت حين احست بتعاظم تأثير الأسلحة النارية ، وهي محسوبة للجانب الآخر - جانب عبدالله - فدفعت بالمهدي لإصدار ذلك المنشور .

---

(١٧) المرشد وثيقة رقم ٩٨ ص ٥١ .

صحيح أن الوثائق لاتجزم أن الخليفة كان (رائد مدرسة الأسلحة النارية والبنادق) التي تطورت إلى إنشاء وحدات الجهادية الضاربة المنيعة ، إلا أن مجرد ايكال أمرها إلى أبو عنجة - وهو (رجله) المقرب - يجعلنا نخمن أنه كان من ورائها ، فمن ذا الذي يعرف قدر خريج مسيد علي الكرار ، رفيق تورشين ، وأشهر صيادي الدرمته وجندي الزبير المتمرس ، غير عبدالله ؟ كان حمدان ، وظل ، بسلاحه الناري وجنوده السود الأشداء ركناً اساسياً من مصادر قوته .

لقد أنشئت راية الأسلحة النارية عقب معركة راشد واسندت قيادتها لحمدان أبا عنجة ، حين تجمع عدد من البنادق يقارب الالف بندقية (١٨) ووضعت تحت الاشراف العام للراية الزرقاء . وكلما توالت انتصارات المهدي وتضخمت الاعداد التي خاضت تلك المعارك من الجانبين وتساقط الأسرى من الجنود النظاميين باسلحتهم النارية ، كانوا ينخرطون تلقائياً في راية حمدان أبوعنجة ، راية الاسلحة النارية أو الجهادية كما سموا فيما بعد وبرزوا للعيان كقوة ضاربة حقيقية بعد معركة الابيض حين غنموا أكثر من خمسة عشر الف بندقية (١٩) ، فاستحال على المهدي تجاهلها فكان لها الدور الأساسي في أكبر المعارك علي الاطلاق : شيكان .

وقد وفق لحد بعيد في اختياره لقادة (السلاح) و (الرجال) سنده الرئيسي في الصعود للقمة : فيعقوب أمير الراية الزرقاء (حيث الرجال) استطاع بدماثته وكياسته وحكمته ان يكتسب ولاء تلك الاشتات المتنافرة من قبائل الغرب وازالة الحساسية الطبيعية الناشئة من توليه ، وهو ابن القبيلة الصغيرة ، شأن رايات قبائل أكثر عدداً وأهم شأناً .

---

(١٨) المرشد ٩٨ ص ٥١ .

(١٩) شقير ص ٧٠٤

أما أبو عنجة أمير الجهادية (حيث السلاح) فقد كان ولاء جنوده له مضرب (٢٠) الأمثال ولربما كان أكثر قادة المهدية شعبية (٢١) وكفاءة ، وقد انشأ راية الجهادية منذ البداية على أسس نظامية (الاحتراف) فقد انفردوا من دون وحدات المهدية بتلقيهم للمرتبات والتعيينات المنتظمة ولم يتركهم لعشوائية غنائم الحرب . ولم يقل قادته الاصاغر أمثال شقيقه فضل المولى (٢٢) صابون والزاكي طمل (٢٣) (٢٤) والنور عنقره عنه كفاءة واقتداراً .

وبسرعة مذهلة وجد صاحبنا نفسه صاحب الطول والعرض ، ممسكاً بخيوط السلطة الحقيقية ، وهو الذي كان قبل عامين كالجسم الغريب وحيداً عارياً لا سند له .

كان له منافسان رئيسيان - محمد - شقيق المهدي الأكبر ، ونافسه في (البلاط) في قدير . مركز القيادة والدعوة - والفكي المنا في (الميدان) فالهبات التي اشعلها المهدي بمنشوراته واتصالاته وغذتها انتصاراته انتشرت في طول البلاد وعرضها ، إلا أن أهمها على الاطلاق كانت بقيادة الفكي المنا، فقد اشتعلت في مسرح الخطر القريب - كردفان نفسها . فتزعمه لقبيلة الجوامعه بموقعها الاستراتيجي في شرق كردفان بين الابيض والخرطوم ، مكنه من اقامة سياج واق في سهل كردفان لحماية المهدي في الجبال شاغلاً حامية كردفان القوية عنه وهو يجاهد دافعاً نقمة حملات راشد والشلالي ومكوك الجبال المناوتين . كان المنا يصول ويجول في شرق كردفان ، ويحشود بلغت

---

(٢٠) CHURCHILL

(٢١) سليمان محمد سليمان ــ مخطوط حمدان أبو هدجة ١٢ .

(٢٢) نفس المصدر ص ١١ .

(٢٣) جهاد في سبيل الله ص ٢٢٤ .

سليمان محمد سليمان ــ الزاكي طمل

(٢٤) مذكرات النور عنقرة بخط اليد ــ مجموعة خاصة بالمرحوم العميد معاش عبدالله الامير اسماعيل

أضعاف حشود المهدي في قدير ، فحقق انتصارت باهرة تساقطت على اثرها أهم مدن كردفان الواحدة بعد الأخرى ، التياره في ٦ / ٨ / ٨٢ وبارا في ٥ / ١ / ٨٣ . عازلا الخرطوم عن الأبيض .

بل إن قرار المهدي باقتحام الابيض تتفاوت الاقوال في مسبباته ، ولكنها تتفق في إرجاعها للفكي المنا . فمن قائل ، منطقياً ، بأن المنا هيأ المسرح للمهدي بانتصاراته فاصبحت الابيض كالثمرة الناضجة تنتظر من يلتقطها ، ومن قائل أن الفكي المنا كان ينوي الهجوم على الابيض قبل المهدي ليفوز بالغنيمة : (فطلب السيد محمد - شقيق المهدي - أن يأذن له بالهجوم .. وكانت كلمتهم مسموعة أكثر من الخلفاء فألحوا عليه بدخول الابيض يوم الجمعة ٢٤ شوال ١٢٩٩ قبل أن يسبقهم الفكي المنا)(٢٥) .

كان الفكي المنا بطل (الرمال) سهل كردفان الواسع . فليس عليه لوم اذن أن يظن بأنه جدير بأن ينال إحدى الخلافات (٢٦) الاربع بل حتى الخلافة الأولى ، والمرجح أنه وعد أو نصب فعلاً أميراً للراية الثالثة ، الراية الصفراء (٢٧) ونزعت منه فيما بعد .

وعلى الرغم من أنه كان أحد (٢٨) المنافسين الاقوياء للخليفة ، لايظو (٢٩) تحميل الأخير وحده مسئولية ازاحته والقضاء عليه ، من بعض التجني . فأعداء المنا في بطانة المهدي كثر كما رأينا والمرجح أن المنا غالى قليلا وتطاول على المهدي نفسه . إذ أن بعض أعوانه كانوا ينادونه بالمهدي المنا .. ويروح ويغدو إلى المهدي (٣٠) وحوله

(٢٥) علي المهدي ص ٤١ .
(٢٦) أبو سليم ـ الخلافة والامارة ص ٢
(٢٧) إبراهيم فوزي ص ١٦٥ .
(٢٨) كان هناك منافسون أصغر طمعوا لمنصب الخليفة مثل فخرالدين حسن ، ولكن اقناعهم بالحسنى لم يكلف المهدي جهداً كبيراً .
(٢٩) علي المهدي ص ٤ .
(٣٠) إبراهيم فوزي ص ١٦٦ .

وحوله عشرون من حاملي السيوف وكان يضايق المهدي ويستنجزه ما وعده به من منصب الخلافة الذي كان المهدي ينوي أن يمنحه للسيد محمد المهدي السنوسي . ولم يعد المهدي قادراً على احتمال ما وقر في نفسه من المنا » وأن الفكي المنا (٣١) حاول الاستقلال من الحركة وان المهدي أدرك خطورة الإنقسام ، فراجعه كثيراً (٣٢) إلى أن أصابه اليأس فقضى عليه .

ولعل المجال لا يضيق بنا إن استمعنا لوجهة نظر أخرى في قصة الفكي المنا . فالمؤرخ محمد عبدالرحيم تحدث عنه بأنه : -

« كان المنا اسماعيل رجلا طويل القامة كبير الرأس أصفر اللون متناسب الاعضاء واسع العينين أقنى الأنف كث اللحية ولد في بلدة (يس) من أبوين من قبيلة الجمع حفظ القرآن الشريف وتلقى مباديء الفقه والتوحيد على غير واحد من العلماء واشتهر بالعبادة والصلاح فالتفت حوله قبائل الجوامعة والجمع وخلافهما وصدرته زعيماً دينياً . ولما جهر المهدي بدعوته ، كان المنا أول من نادي بها فقاد الجيش بنفسه وأحدث هرجاً في كردفان فانتدبت له حملة عسكرية فقابلها في الجفيل شمال جبل العين ففتك بالحملة ولم ينج منها إلا الهارب ثم زحف على التياره فقضى على حاميتها وزحف منها إلى الأبيض فعسكر في الجنوب الشرقي منها عند بركة الجنينة فكانت فرسانه تحاصر الأبيض حصاراً مراً ولما جاء المهدي وأقام بالجزيرة وفتح الأبيض شاهد المنا من شموخ البقارة وغطرستهم مانبت عنه نفسه ومما زاد الطين بلة حدوث نزاع بين ولد المنا والخليفة عبدالله وتهور بعض التعايشة على ولد المنا مع أن المنا كان يرى التعايشي كسقط المتاع بالنسبة لقوته ولاسيما وقد كانت للمنا اليد الطولى فى حرب الأبيض وبسط نفوذ المهدية عليها فطلب المنا من المهدي أن يأذن له بالعودة إلى بلده استعداداً للزحف على الخرطوم فأذن له المهدي فعاد بجيشه وبعد أن وصل بلدة يسن سرح جيشه وكف عن مساعدة المهدية .

---

(٣١) slatin 231

(٣٢) المرشد ص ٥١ - . وثيقة رقم ٩٨ .

وندم على مافرط منه ولزم خلوته ملازماً للعبادة فدعـــاه المهدي إليه فلم يجبه ثم دعاه ثانية فقابل الدعوة بالرفض فلذلك جرد المهدي له ثلاثة أفراد وهم حمدان ابوعنجة وعبدالرحمن النجومى وعبدالله ود النور على رأس جيش جرار وكتب خطاباً إلى المنا قال له جهز المؤن والعلائق لجيش قادم لحصار الخرطوم فلم يعبأ المنا بشئ منه ولكنه ما كان يظن أنهم سيقتلونه بعد ذلك الاخلاص وتلك التضيحة التى أداها في نشر دعوة المهدية فقدم الجيش وأحاط ببلدة يسن وأطلق النار عليها وهو يهاجم إلى أن وصل منزل المنا فوجده متربعاً على سجادة الصلاة فقبض عليه وعلى اربعة آخرين وهم امنا اسماعيل واسماعيل والده وعبدالبارى اسماعيل اخ المنا واسماعيل المنا ابنه ومحمد البقاري ابن اخت المنا . فكبل هؤلاء بالاغلال و سيقوا وكان المقتولون يومئذ في بلدة يسن ٦٠ رجلاً غير الجرحى وقد وجدت غنائم الأبيض اكداساً عند الجوامعة والجمع ، وفي اليوم التالي جئ بالأسرى إلى التياره وبها اجلسوا صفاً مستقبلين القبلة وتقدم أحمد الطليعة السياف فقطع رؤوسهم . وقد حدث هرج ومرج بين الجوامعة والجمع وكادوا يهجمون على جيش المهدية في التياره إلا أن عقلاءهم نصحوا لهم حتى لا يعرضوا حياتهم إلى الخطر وحسناً فعلوا لأن وراء ذلك نصف مليون حربة تلمع من أخلاط القبائل التي هي أطوع للمهدي من بنانه .

ومن الغريب أن بعض الجهلاء من اتباع المنا كان يعتقد بأنه رفع إلى السماء ولم يمت . ويترقبون مجيئه كما ينتظر الشيعة ظهور المهدي المنتظر ..(٣٣) .

أما محمد عبدالله ، شقيق المهدى الأكبر فقد اختفى من الساحة عندما لقى مصرعه في الموجة الأولى للهجوم الفاشل الذي قاده لاقتحام تحصينات الأبيض فى صبيحة الجمعة ٥ سبتمبر ١٨٨٣ .

---

(٣٣) محمد عبدالرحيم معجم الشخصيات ٢٦ / ٢ / ٦ / ١٩ م

وملابسات ذلك الهجوم تؤيد ما ذهب إليه أبو سليم من مكانة محمد في تلك الايام وبعض المصادر (٣٤) تجزم بأن محمد هو الذي أصر على الاقتحام المباشر في وضح النهار ، رغماً عن معارضة المهدي وخليفته وأنه اذعن على مضض لرأي شقيقه الاكبر ، ورغماً من أن الاسلوب القتالي المباشر لم يكن أبداً من تقاليد حروب المهدية ، وبدءً بمعركتها الاولى فى أبا ومروراً بمعاركها اللاحقة الشبيهة بكمائن تشن في الثلث الاخير من الليل وتتسم بالمكر والدهاء والخديعة ، وأدب المهدية وتوجيهات المهدي المكتوبة لقادته العسكريين ترصعها دائماً كلمات (المكيدة) و (المكايدة) و (الخديعة) (٣٥) وسرعان ما عادوا إلى الخط الصحيح بعد نكسة الأبيض ، فأرسل المهدى إلى قدير وأحضر كل الأسلحة النارية (٣٦) موكلاً أمرها لحمدان وبدأت المناوشات بالنيران والحصار وتضييق الخناق في تكتيك مختلف لا يمكننا إلا أن نلمح أصابع عبدالله من ورائه ، إلى أن سقطت المدينة ولم يعودوا لمثلها أبداً ، إلا في ذلك الضحى الذي شهد نهاية دولتهم في سهول كررى .

وفي الأشهر القليلة التي انصرمت منذ سقوط الأبيض ، بلغ الخليفة أقصى ما بلغه (٣٧) من قوة في حياة المهدي ، اسمياً ورسمياً وفعلياً . ففي المظهر ، تميز عن بقية الخلفاء (٣٣) باستخدامه للأمباية دون النحاس وأثناء تحركاته التفت حوله كوكبة من الفرسان كحرس خاص .

ومن الناحية الفعلية تزايد اعتماد المهدي عليه بعد وفاة شقيقه محمد وبلغت مكانته لديه حداً لا يدانيه فيها أحد وأصبح القناة (٣٨) الرئيسية التى تمر عبرها توجيهات

---

(٣٤) اسحق الخليفة شريف .

(٣٥) مهدية ١ / ٥٦ ص ١٩ .

(٣٦) شقير ص ٦٧٩

(٣٧) HOLT THE SUPREMACY OF KHALEFA ABDULLAI

(٣٨) شبيكة ص ٦٩١ .

المهدي في كل الشئون والتي يلجأ إليها كل الامراء وذوو الشأن في كل صغيرة وكبيرة كما تبين وثائق المهدية .

وقد توافق ذلك مع صعود مكانته الرسمية ، فبعد سقوط الابيض ، ثانى مدن البلاد وبوابة غرب السودان ، تضاعف حجم الحركة من سلاح وأموال وجنود ، ودانت له أغلب قبائل كردفان والغرب واتسع نطاق دعوته ليشمل كل البقعة المسماة بالسودان ، كان من الطبيعي أن يضع المهدي هيكلا تنظيمياً جديداً يستوعب المستجدات كلها ولكن المهدي لم يكتف بما منحه التنظيم الجديد للخليفة عبدالله من سلطات واسعة لا حد لها ، بل أفرد له وضعاً خاصاً فوق ذلك الهيكل التنظيمى ، فأصدر منشوره الشهير فى ٢٦ / ١ / ٨٣ بعد أسبوع من سقوط الابيض ، في مكانة الخليفة عبدالله ، وأردفه بعد شهور قليلة بإسباغ الشرعية التي لا تناقض زاعماً أن تعيين الخليفة الأول وبقية الخلفاء صدر من الرسول (صلعم) في حضرة نبوية (٣٩) .

وسواء كانت البواعث لإصدار المنشور هي زجر الأصوات المتعالية للمحتجين والناقمين على الخليفة وإسكاتها إلى الابد كما ذكر البعض أو لدواع تشريعية وتنظيمية أملتها الظروف ، نجد حرارة الأسلوب والكلمات الحاسمة القاطعة تقطع السنة كل المحتجين ، فهو يقول : إعلاماً منه إلى كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابه أما بعد اعلموا أيها الاحباب أن الخليفة عبدالله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية المشار إليه في الحضرة النبوية ..... إن الخليفة عبدالله هو مني وأنا منه وقد أشار إليه سيد الوجود (صلعم) فتأدبوا معه كتأدبهم معي وسلموا إليه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي وصدقوه في قوله ولاتتهموه في فعله فجميع ما يفعله بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أو بأذن منا لا مجرد اجتهاد منه ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه في تنفيذ أمر (صلعم) والقضاء بأشارته فإن فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك واعلموا يقيناً أن قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله (صلعم) ... أنه خليفة

---

(٣٩) خطاب المهدى للسنوسى ٥ رجب ١٣٠٠ هـ

الصديق عند الله ورسوله بنص فهو مسدد مؤيد من الله ورسوله ومن أيادى الله لنصر دينه باشارة سيد الوجود (صلعم) وقد ورد في فضله كثير فحيث فهمتم ذلك فالتكلم في حقه يورث الوبال والخزلان وسلب الايمان واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لانه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب اموالكم فلا تتعرضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله لانه خليفة الصديق ... وهو خليفتنا في الدنيا وخلافته بأمر من النبى فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقاً بمهديتى فليسلم للخليفة عبدالله ظاهراً وباطناً وإذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولي .... وانما أنذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلا تسبوه وتنسبوا اليه الظلم والجور فتهلكوا فاحذروا عن أذية ... وأن الخليفة هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع امور الدين واياكم والوسوسة في حقه وظن السوء وعدم الامتثال إليه في قوله والمشاجرة له ولأحكامه والخلاف ... »

فهو الآن أمير جيش المهدية في فترة أحرزت فيها الدعوة انتصارات عسكرية عديدة ولازالت ترنو لانتصارات أضخم ، وقد انخرطت جماهيرها في مجتمع عسكري (اسبرطي) كان كل أفراده مقاتلين قبل أن يكونوا شيئاً آخر .

وبحكم المنصب والصلة كان الخليفة الشريك الأكبر في صنع كل القرارات العسكرية لادارة مسارح الحروب المختلفة في شمال وشرق ووسط البلاد . والمدهش حقاً وجود مراسلات مكتوبة بين المهدي والخليفة وهما يكادان لايفترقان ، وقد تكون بواعث المهدي وضع أضابير ونظام ديواني دقيق مدعم بالوثائق المكتوبة ، وإن كان أغلبها لايمس أموراً عسكرية كبرى ويبدو أن المهدي كان يضع تحت يد الخليفة إثباتا مكتوباً في الأمور التي تمس « شئون الافراد والتعيينات » وهى على ضآلة أهميتها قد جعلتها طبيعة البشر ذات حساسية خاصة لاهتماماتهم الشخصية . على كل حال ، تبين تلك

(المذكرات الداخلية) أن المهدي كان لا يتدخل مباشرة في شئون الجيش إلا عن طريقه ، فهو يحدثه في ١ رجب ١٣٠١ هـ بعدم تغيير الأفراد (٤٠) لراياتهم (وحداتهم) وفي أخرى يرجوه أن يسمح بتلبية رغبة جماعة أحمد (٤١) مكاشفي في الانضمام لراية الخليفة شريف ، ثم تعيين طلائع الاستكشاف لحملة هكس بقيادة عمر الياس (٤٢) ، وفي أخرى يحدثه عن الانضباط والسلوك العام وضرورة خشونة المأكل والملبس (٤٣) . وفي المناسبات القليلة التي تدخل فيها المهدي وتخطي الخليفة وخاطب أمرائه الأدنى كان أغلبها لدعم الخليفة وتوجيه الأمراء بطاعته طاعة كاملة ، كما فعل عندما خاطب أباقرجة (٤٤) ثم آدم عمر وكافة الامراء (٤٥) محذراً اياهم من الاساءة (٤٦) للخليفة وآمراً بطاعته .

كانت علاقة (العمل) بين المهدي والخليفة مثالية ، وكما يجب أن تكون العلاقة بين (القائد الاعلي) و (القائد العام) في أي جيش حديث .

* * *

ومنذ البداية ، وضع المهدي الخليفة عبدالله ، كأحد الخلفاء ، وضعاً مميزاً في السلك القضائي ، فهو يليه مباشرة كما يبين منشوره الصادر في ١٢ رجب ١٢٩٩ يوم هزيمة الشلالي ، حيث رتب التساسل القضائي على النحو التالي : (٤٧) .

المهدي أولاً يليه الخلفاء ، ثم الأمراء والعمال (حكام المناطق) ثم النواب القضائيين . وبالطبع تزايدت سلطات الخليفة القضائية عندما ميزه عن بقية الخلفاء عقب منشوره الشهير في مكانة الخليفة .

---

(٤٠) مهدية ١ / ٥٦ ص ٤ .

(٤١) مهدية ١ / ٥٦٥ ص ١٩ .

(٤٢) المرشد وثيقة رقم . ١٤٠ .

(٤٣) المرشد وثيقة ١١٥ .

(٤٥) المرشد وثيقة ٢٦١ .

(٤٦) المرشد وثيقة ١٦٩ .

(٤٧) HOIL , 115

إن الحجم المذهل للتشريعات والتوجيهات التي أصدرها المهدي خلال عامي كردفان ، تبين أنه فوض كثيراً من سلطاته القضائية لمعاونيه ، فقد تناولت تلك التشريعات توضيح كل نواحي النشاط الانساني لاتباعه حين رمت إلي خلق مجتمع جديد ، ومن ثم استغرقت معظم وقته ، واشتكى فعلاً من كثرة مشغولياته (٤٨) وضيق وقته . والواضح أنه ركز جهده على النواحي (التشريعية) وترك النواحي (القضائية) وإصدار الاحكام والجلوس في المحاكم لمن فوضهم وعلى رأسهم الخليفة عبدالله ، بل حتى الأمناء الذين اختارهم لتنظيم عرض الشكاوى والقضايا وجههم بالتشاور(٤٩) أولاً مع الخليفة عبدالله ، كما منحه سلطة التأييد العليا . والقضايا القليلة التي (٥٠) تدخل (٥١)فيها (٥٢) بصفته (٥٣) سلطة التأييد والاستئناف العليا ، كانت قضايا ذات حساسية خاصة تمس أهله أو أهل الخليفة لابد أنها كانت قطرة من محيط بالنسبة لمئات القضايا اليومية التي نظرها المفوضون ، وعلى رأسهم الخليفة ، وخاصة في مرحلة التحول الاجتماعي واصطدام عادات وتقاليد مجتمع غرب السودان المفتوح مع قوانين المهدي المتصلبة فيما يتعلق بالنقاء وطهارة السلوك .

ورغماً من وجود قاضي الإسلام بجانبه للتأكد من سلامة الاحكام والاجراءات القضائية والأدلة ، فقد تركزت سلطة التأييد في معظم القضايا في يد الخليفة بعد تفويضه .

---

(٤٨) المرشد وثيقة رقم ٣١١ .

(٤٩) المرشد وثيقة رقم ٣١٢ .

(٥٠) المرشد وثيقة رقم ٢٧٧ .

(٥١) المرشد وثيقة رقم ٢٧٨ .

(٥٢) المرشد وثيقة رقم ٧٠ .

(٥٣) المرشد وثيقة رقم ٣٥٥ .

ومن هنا اكتسب شهرته بأنه إداري صارم لا يتوانى لحظة في توقيع أقسي العقوبات على المخطئين . وقد ادركا - المهدي والخليفة - أن إدارة الرجال وتحقيق الأهداف الجسام لا تتم إلا بإنشاء آلة إدارية كفؤة لا تتهاون ، وانضباط عسكري لايرحم .

ويبدو أن الخليفة وقع عليه ذلك العبء البغيض وحمله إلى آخر أيام حياته .

فسلاطين يحدثنا عند لقائه به لأول مرة في الرهد : ((وكان يسألنا بعض الاسئلة ونحن نأكل . وقال : « لم انتظرتم خارج المعسكر ولم تدخلوا بلا إذن وهل يحتاج الناس للاذن لكي يدخلو بيوت أصدقائهم » ؟

فقلت : « نحن نرجو عفوك . لقد غاب عنا خادمنا مدة طويلة ولم يخطر ببال أحدنا أنك تخرج للقائنا ولما اقتربنا من المعسكر سمعنا دق الطبول فسألنا عن معناه فقيل لنا أن أحد المجرمين سوف يقتل وكنا ننوي أن نسير وراء الطبل ولكن رسولك جاءنا عندئذ »

فقال : (وهل بلغ ظلمي أنه عندما تقرع طبولي يظن الناس أن مجرماً سيقتل ؟)

فقلت : (كلا يا مولاي . انت مشهور بالصرامة مع العدل) فأجاب :

(اجل أني صارم وهذا ما يجب علي ، وستعرف السبب في ذلك عندما تطول اقامتك معنا) (٥٦) .

* * *

وقع على الخليفة العبء الأكبر في النواحي المالية والاقتصادية كما يبين منشور المهدي الذي وجه فيه كل اتباعه (٥٧) ، وبالاخص الخلفاء ، لمعاونة الخليفة عبدالله في جمع

---

(٥٦) SLAITN, 286

(٥٧) مجموعة النجومي

الزكاة والغنائم ، مصدر الدخل الاساسي لبيت المال ، وعهد إليه بتعيين وكلاء لجمعها وأوجه انفاقها . ومن هنا يبدو أن دور أحمد سليمان — أمين بيت المال — انحصر في دور الخازن (CASHIER) الذي يتسلم ويصرف . ولابد أن إشراف الخليفة على بيت المال أخذ حيزاً عظيماً من وقته وجهده ، فالمنشورات العديدة التي اصدرها المهدي منذ اندلاع الثورة تبين محاولاته العديدة لاقناع اتباعه (باشتراكية) مبادئه ، وان الغنائم ملك للجميع وليس لقانصيها فقط ، وأن الأمر أتعبه تعباً شديداً وكان مصدراً دائماً لضيقه وتبرمه من شراهة (٥٨) اصحابه وغلوهم .

ومن جهة أخرى ، كان النمو المطرد لبيت المال عقب انتصارات الابيض وشيكان ، وتنوع الاصناف التي ترد إليه من أسلحة وذهب وعملات وماشية ورقيق ، بالاضافة إلى مؤسساته الفرعية من أسواق وخدمات كالعصارات والطواحين وحوانيت الحرفيين ، كل هذا استدعى منه تفرغاً كاملاً ، لوضع إمكانات تلك المؤسسات في خدمة المعركة وربطها بالاحتياجات (٥٩) العسكرية ، وهي الهاجس الأكبر في تلك الفترة .

كان الخليفة أقرب لتفهم الطبيعة البشرية وطموحاتها المادية (٦٠) فخفف لحد بعيد من نظرة المهدي المثالية للأمور ومطالبته بالتجرد ونكران الذات . فكما سنرى ، سيولي التجارة والنشاط الاقتصادي عناية خاصة عندما تولى زمام الأمور ، وإن كان ولعه بالزراعة باعتبارها عصب الاقتصاد الاساسي . ولا بد أن تجربته الزراعية في الصغر ، عندما استثمر الارض الزراعية التي منحها له الزبير في الكلكه ، استهوته كثيراً .

---

(٥٨) HOLT, 109

(٥٩) القدال ص ٧٧ .

(٦٠) ليعقوب يد في تلك النظرة المرنة للاقتصاد والتجارة فالشيخ بابكر بدري ذكر أنه افسح لهم الطريق محيياً ذاكراً أن التجارة عنصر هام من عناصر الدولة

كان الود مفقوداً بين الخليفة وأحمد سليمان . ولا بد أن الإحتكاك بينهما نشأ لاسباب فنية وعملية ، وتزايدت الجفوة بينهما ، إلا أن قرب أحمد سليمان من المهدي ، الذي كان من اصدقائه الحميمين ، صار درعاً احتمى به أحمد سليمان من بطش الخليفة ..... إلى حين .

* * *

وبالرغم من أن عبدالله كان أمير جيش المهدي ، فإن الوثائق لم تتحدث كثيراً عن دوره الحاسم في التخطيط والتنفيذ لأبرع معارك المهدية على الاطلاق ، ذلك الصراع الهائل الذي احتدم في ضحى الاثنين ٥ / ١١ / ١٨٩٣ بغابة شيكان . ولكننا نحس من اللمحات الخاطفة التي ظهر فيها ، مدى سيطرته على مجريات الأحداث ، فهاهم اقرباء المهدي وكبار معاونيه يلجأون إليه في أدق الامور وأكثر اللحظات حساسية (٥٨) .

ولاريب أن حمدان ابو عنجة ، رجله الوفي ، كان بطل اليوم بلا منازع . والمناورة المعقدة التي نفذها بحنكة وكفاءة احالت ما كان يمكن أن يكون كارثة محققة إلى نصر باهر، وسواء كانت بتوجيهات مباشرة من الخليفة أو بدونها فالفضل في النهاية يعود إليه ، فلولا ثقة حمدان في مكانته لدي الخليفة وعلاقتهما الحميمة لما اتخذ قراراً حاسماً مستقلا دون أن يخشى لومة لائم . فقد تعاقب الجيشان بتحويل هكس اتجاهه فجأة الي الشمال متجهاً نحو الابيض الخالية بدلاً من البركة ، بينما المهدي وجيوشه يحثون السير إليها للاشتباك به تاركين الابيض الخالية لقمة سائغة في متناول هكس .

---

(٥٨) كان ذلك عندمانصحت عشيرة المهدي وكبار مستشاريه بأن يتخلف المهدى عن قيادة الجيش ، خشية عليه وعلى الدعوة إن أصابه مكروه فأبان لهم الخليفة أن عامل الروح المعنوية تحتم وجود المهدي بين جنوده ورفض الفكرة شيكان - زلفو

وهنا اتخذ حمدان المبادرة بيده وبث رسله على طول الطريق بين الابيض والبركة للحاق بمؤخرة جيش المهدي وتحويل اتجاهها من البركة إلى كازقيل ، فكدس عشرات الالوف من الرجال حول هكس لتعطيله ثم الاشتباك معه ، وقد كاد هكس ينفلت من بين أصابع المهدي ويصل إلى هدفه النهائي : الأبيض .

* * *

زحف المهدي بثلاثة محاور على الخرطوم ، فحتى (ترد) كردفان وحشانشها الكثيفة لم تكن لتسع مئات الالوف من البشر والدواب ، فقد قاد المهدي شعباً بأكمله ، تدافع وهو يحث السير شرقاً نحو النيل . كانت الأسواق والمدن ، بحوانطها من القش المحزوم ، تمتد الى مد البصر وتقام وتزال في ساعات . واثناء توقفهم بالرهد ، قابل عبدالله سلاطين حاكم دارفور الأسير وعينه ملازماً ، وأسهب الأخير في وصف الكفاءة والحسم الذين أدار بهما الخليفة الشئون اليومية لتلك الجحافل من رجال وعوائل ، بمشاغلهم الإدارية الكثيرة والتي ملأت يديه بينما عينه ترنو بعيداً إلى المعركة القادمة الكبري .... الخرطوم .

أمير جيش المهدية

بين جبال كردفان الرطبة ، ورمالها المحرقة ، نضجت شخصية الخليفة ونمت قدراته . فحين عاد إليها في زيارته الثالثة في أواخر عام ١٨٨٢ ، كان فتى عاطل المواهب في رهط المهدي الصغير وهو يحث السير هرباً من نقمة الحكومة ، وحين غادرها في أوئل ١٨٨٤ وأشرف على قلعة أم درمان الصغيرة المتكئة على شاطئ النهر ، كان قائداً لجيش لجب (أمير جيش المهدية) صقلته عشرات المعارك والاشتباكات ولمع بين صفوفه نصف مليون من سنان الحراب والسيوف . كان المسئول التنفيذي الأول لدولة بسطت سلطانها الفعلي على أغلب البلاد ، ماعدا بقعة صغيرة انحصر د خلها غردون . كان الخليفة الأول و (النائب) و (الوزير) .

كانت أعوام كردفان ، بأحداثها الجسام جسر التجرب الذي عبره الخليفة فوضعه في ذلك الوضع ، وأهله بعد شهور قليلة ليدير تلك الأرجاء الشاسعة لسنين طويلة ، وبكفاءة منقطعة لنظير ، حتي بعد غياب رفيقه الاكبر . ولكن كل تجارب العامين العاصفين المائجة بحركات الجيوش ، وماسبقها من حرب الاستخبارات الخفية باستنباطاتها وتحليلاتها ، ثم حشد مئات الالوف من البشر ، طوعاً أو كرهاً . ثم بناء المهدي لهياكل الدولة والمجتمع من نظم قضائية ومالية وإدارية لحكم المناطق التي تساقطت بين ايديهم ، والخليفة بجانبه مشاركاً ومراقباً ، كل ذلك لم يكن ليضيف شيئاً مذكوراً ان لم يكن هناك استعداد فطري لضم كل تلك التجارب لتفرز تطوراً ايجابياً وتفتح آفاقاً وابعاداً لشخصيته النامية المتفتحة . ولعلنا ألمحنا في صفحات سابقة ذلك الاستعداد الفطري ، فتحت القشرة الهشة المصطنعة لشخصية الابن المدلل وتلميذ الخلوة الكسول المتمرد ، كمنت المادة الصلبة : العناد والوحدة والتأمل ، القتال

والقنص ثم البحث الدؤوب عن بطل احلامه .

ويحثه الدؤوب ذاك ، يبدو أنه هو الذي يقودنا إلى القوة الدافعة وراء ذلك التحول الجبار الذي استغرق عامين فقط : الإيمان المطلق بالمهدي وصدق دعوته . فالاخلاص للافكار والمبادىء يفجر طاقات البشر الكامنة ، والاستغراق في الأهداف ، وبالاخص السامية منها ، يضفي على العقل البشري شفافية ، ويفتح البصيرة ، فتزدهر وتنمو فيه كل بذرة فكرية ، في نشاط مستمر موظف لخدمة تلك الأهداف لا يكل من التعليم وجمع الحقائق وتخزينها .

وذلك الولاء المطلق للفكرة ورمزها الممثل في المهدي ، لم يفارقه حتى آخر أيام حياته ، واتفق عليه كل من عاصره وتحدث أو كتب عنه .

فلم يسع سلاطين ، صاحب القلم المسموم ، إلا أن يحس بالحرارة والصدق والعاطفة الجياشة عندما نقل عن لسان الخليفة قوله ((كان نور عيني .. وقد اقسمت له بالولاء المطلق ولم احنث بقسمي لحظة واحدة)) (١) .

ولكن ذلك الولاء والايمان المطلق بمهديه ، لم يعق ثقته بنفسه ونموها المتواصل ، وخاصة عندما بدأ المهدي يستشيره ويستفسره في بعض الامور ، ولابد أنه أصيب بالدهشة ثم بالحبور والجذل ، ثم اليقين بأن له دوراً عظيماً ادخرته له الأيام .

كان الثراء الوجداني والديني الذي غمره في اعوام كردفان ليس هيناً ، فانفراده بالمهدي قبل وخلال تلك الاعوام لساعات طوال متفاكراً ومستمعاً لاحلامه وآماله وآلامه ، ومنصتاً مع الآخرين لمواعظه المطولة ، جذبه تدريجياً لعوالم أخرى وفتح عينيه على آفاق جديدة وأدخل يقيناً في قلبه لا يتزعزع بأنه حامل لواء المهدية بعد المهدي ومخلص العالم الاسلامي من الشرور .

---

(١) SLATIN, P. 129

وفي محاولة لرسم لوحة سريعة لشخصية الخليفة، بالأخص الجانب المهني منها نجد أنه من بين كل المناصب والمسئوليات التي تولاها الخليفة ، كان منصب (أمير جيش المهدية) هو الأهم ، وهو الذي استنفذ معظم طاقاته ، وابرز ملكاته القيادية والإدراية ، ودعم فعالية المنصب الأعلي — الخليفة الأول .

فمنذ البداية كان صاحبنا مقاتلا وصائداً ماهراً بحكم بيئته . والصفة الأولى مكنته من التقديرالصحيح لما يستطيعه (الفرد) المقاتل ومالا يستطعه ، جسدياً ونفسياً ، والثانية شحذت فيه ملكة التدبير والتخطيط للايقاع بالفرائس كجيوش الشلالي وأبي السعود وهكس وغردون .

ومع توفر تلك الخامة الطيبة ، كان الرجل محظوظاً في النمو المتدرج لحجم الجيوش التي شارك المهدي في قياتها ، وبالتالي في النمو المتدرج المتعافي في قدراته التنظيمية ، فلو كان لقاؤه بالمهدي وبين يديه مئات الالوف من الرجال والخيول ونصبه فجأة أميراً لجيوش المهدية ، لما وسع خياله لتحركات تلك المجاميع الجبارة : فمن ثلاثمائة رجل مسلحين بالسلاح الأبيض في احراش أبا ، إلى ثمانمائة رجل وبضعة خيول في الجبال ، إلى ثمانية آلاف في واقعة الشلالي إلى عشرات الالوف في غابة شيكان ، حين اكتملت (الاوركسترا) وقدمت أروع معزوفاتها : صهيل خيول ابوقرجه في تعقب هكس ومناوشته عبر مئات الأميال ، قصف جهادية أبوعنجة بالآف البنادق حين قصم ظهر هكس في ليلة المعركة ، وصليل السيوف خلال الصدام المكتوم بين جحافل يعقوب والنجومي ومربعات هكس في صبيحة المعركة . تماماً كما ذكر قائد عسكري شهير معاصر :

« إن القيادات الاربع التي لابد أن يتولاها أي قائد عسكري محترف هي الفصيلة والكتيبة والفرقة والجيش » .

الفصيلة لانك تعرف رجالها وتحبهم أكثر من امهاتهم .. الكتيبة لأنها مجتمع كامل

الفرقة لان كل اوركسترا الحرب تكتمل فيه .. الجيش لان قيادته في المعركة تمنحك أقصى مايمكن أن يناله بشر من الخبرة والمتعة العاطفية والعقلية » . (١)

وهناك فضيلة أخرى ، ميزته عمن حوله ، وهي محاولته الاستفادة من الخبرات الاوربية الحديثة المتاحة للدرجة القصوى ، أمثال سلاطين ويوسف منصور والدكتور يوسف زكي ، ولم يشح بوجهه رافضاً للتقدم العلمي الاوربي الذي اعتبره الآخرون مظهراً من مظاهر الكفر . ومنشور المهدي في استخدام الأسلحة النارية أقرب مثل . ولم يتخل عن تقديره للنظم الأوربية وتقدمها العلمي . ولابد ان الثلاثي الذي لازمه منذ سقوط الابيض وهم سلاطين ، يوسف منصور ودكتور يوسف زكي قد قدم كل مابوسعه ، كرها أو طوعاً ، في هذا المجال .

كانت علاقته بسلاطين علاقة مثيرة للجدل . والواضح أنه بالإضافة لاعجابه بقدرات وخبرات حاكم دارفور السابق ، وأعلى الاسرى الأوربيين منزلة ، كان يكن له بعض الود ويثق فيه في البداية . والمرجح أن سلاطين أسهم إسهاماً فعالاً في المجالات الإدارية والتنظيمية ، عسكرية ومدنية . فأنشأ وحدة الربع . وهي تعادل حجم اللواء تقريباً وتمثل حلقة هامة في تسلسل التكوين القتالي في الجيوش الحديثة ، كانت بمبادرة منه ، عدا مساهماته في المجالات الإدارية الأخرى ، كتخطيط المدن وشبكات البريد . ولا بد ان مسامراتهما الطويلة بعد العشاء منفردين ، والتي امتدت لسنوات [illegible] العالم الخارجي [illegible] الخليفة على عالم لا [illegible] إن الوثائق والكتب لا [illegible] ولايمكن لسلاطين أن يقر بأنه كان في فترة مامستشاراً للخليفة ، وقد وجه كتابه للعالم الأوربي وخصص جزءاً هاماً منه لدرء اتهامات (٢) غردون له بالخيانة ومعاونة الثوار .

Slim, Field Marshal ,Defeat unto victory, p43 (1)
Gordon , journals, London 1885 vol T P89 (2)

كان يوسف منصور (٣) ضابط مدفعية . وقد خدم الخليفة باخلاص حتي نهاية دولته ، وكان أحد مستشاريه المقربين . وبجانب منصبه الرسمي كقائد مدفعية المهدية ، كان أحد الضباط الأسرى الذين استجابوا لنزوة الخليفة في صبغ جيش المهديه بمظهر الجيوش النظامية من طوابير وموسيقى عسكرية وألبسه مهيبة.

أما الدكتور (٤) حسن زكي والذي أسر بعد سقوط الخرطوم فقد قدم خدمات جليلة للخليفة وبالأخص في مجال الكيمياء وصنع الذخيرة ، وروى تعطشه للمعرفة الفنية .

لم يكن حرص الخليفة على العتاد والمعدات بأقل من حرصه على الكوادر الأجنبية المدربة وقد ظل طيلة حياة المهدي وطوال عهده كرية البيت المدبرة التي تدخر مئات الحوائج خشية اليوم الاسود : البنادق والذخائر الأجنبية وخطوط التلغراف والبوارج النيلية والمطابع ومصانع الصابون ، بل حتي ابنية الخرطوم لم يهن عليه هدمها وتدميرها فحرر خطابات شديدة اللهجة منذراً المخربين (٥) .

كان اهتمامه بالذخيرة وهلعه من نفاذها هاجسه الاكبر . وكان بخيلاً للغاية في صرف الذخيرة الجيدة المصنعة في الخارج خشية نفاذها ، فبذل جهوداً مضنية لتصنيعها وأفلح إلى حد ما ، وكان فخوراً بذلك الانجاز الدرجة التي احتفظ بعينة منها في متحفه الخاص ، حتي أصابه الغم الشديد حين قتل مخترعه المدالي -- الاسطي بيرتكاش - نتيجة انفجار ولما علم بالكارثة عاد حزيناً مطرق الرأس لا يجرؤ أحد على محادثته احتراماً لحزنه .

ولازال كثير من الدارسين لشخصية الخليفة يبدون إعجابهم وتعجبهم لحسه

---

(٣) ابراهيم فوزي ص ١٢

شقير ص ٩٣٩ .

OHRWALDER , P . 366 (٤)

(٥) ابو سليم — تاريخ الخرطوم طبعة ثانية ص ٨١ .

الجغرافي المتميز ، عندما يطالعون خطاباته وتوجيهاته لامرائه المتمركزين في أصقاع بعيدة ، لم تقع عينه عليها من قبل ، موجهاً في أدق التفاصيل : القري والسكان والزراعة والمحاصيل ولم تكن تلك الموهبة غريبة على من اخترق البلاد من أقصى الغرب في دارفور إلى شواطئ النيل الأزرق سيراً على الأقدام مسجلاً في ذاكرته القوية التغيير البطى لتضاريس الأرض وتلونها من خضرة الأشجار الكثيفة ثم تناثرها وتباعدها في مناطق السافنا ، إلى صفرة الصحراء القاحلة فمسطحات المياه الجارية عند النيلين ، ومن التبدل المتدرج في السحن واللهجات في ديار عشرات القبائل التي عبرها . أما تلك الاصقاع في شرق وشمال السودان والتي لم يطأها بقدمه قط ، فلابد أنه كان مستمعا صبوراً وسائلاً ملحاحاً لعشرات الوفود التى قدمت مبايعة من تلك الجهات ، وخاصة بعد سقوط الأبيض .

وحين وصفه تشرشل بأنه خير من يحكم على الرجال (٦) لم يبالغ كثيراً ولابد أن فراسة البدوى الطبيعية قد شحذتها وأذكتها التجارب والأحداث . وفى نفس الوقت كان إحساسه بالعدالة مطلقاً ، وقد وصفه أحد المؤرخين الذين عاصروه . « وعلى كل حال أقول أننى لازمت الخليفة حيناً من الدهر وصليت خلفه وسمعت وعظه ورايي فيه كمؤرخ يزن الامور بميزان العدل أنه كان رجلاً حكيماً بطلاً لايهاب المكاره ولاتأخذه فى الحق لومة لائم يضرب على يد الظالم مهما كان (٧) . »

وحتى حين اختار له المهدي دور ممثل العدالة الصارمة السريعة التى لاتتهاون ولا تمهل ، لم تفارقه خشيته واحترامه للعلماء والمتفقهين وكان لايفتأ يردد عبارته المفضلة « قلد عالم تخرج سالم » . . وتمسكه بالشريعة والقانون ، جعله ضعيفاً أمامهما ، وخاصة خلال عامي كردفان حين ترأس هيئة الاستئناف القضائية بصفته الخليفة الأول

---

(٦) CHURCHILL, THE RIVER WAR,LONDON 1899,P.39

(٧) محمد عبدالرحيم ، معجم الشخصيات - عبداله بن محمد ٧ / ٩ / ٥٦

فواجه يومياً عشرات من قضايا الأحوال الشخصية والسلوك العام ، ولعله تحسر على سنوات التعليم والتفقه الضائعة ، مما يفسر ، إلى حد ما ، مكانة يعقوب المتنامية واعتماده عليه ولكن الرواة سجلوا أيضاً بعض لحظات التمرد على العلماء والفقهاء وسفسطتهم ، فهناك رواية مشهورة تتحدث عن أن أحد الفقهاء ظل يجادل المهدي زمناً طويلاً دون أن يفلح فى إقناعه فأرسله المهدي للخليفة فأمر الخليفة باحضارالسوط لجلده وعندما أحتج الرجل قال الخليفة : « المنطق والاقناع عند المهدي أما أنا فعندي السوط والسيف » .

وضعفه أمام العلماء والقضاة ، هي الشائبة التي خالطت أداءه الإداري البارع الذي لم يملك الأب أوهرولدر إلا أن يصفه بأنه : « عموماً كانت آراؤه وافكاره التي يبديها تلقائياً جيدة للغاية وصائبة . ولكنه محاط بمستشارين متعنتين ومتعصبين يقتلون ويئدون أفكاره النيرة في مهدها » ...

* * *

لئن تتبعنا بايجاز التطور الايجابي في شخصية الخليفة خلال عامي كردفان فالحديث عن سلبياتها لسنا حقيقة بحاجة إليه ، فكل أدب القرن التاسع عشر الأوربي عن المهدية خصص ووجه لتجسيم سلبياتها للدرجة التى استنكر ها أكثر (٨) من باحث أوربى ، إن كان معاصراً للاحداث أو راوياً لها ، فهى لا تعدو أن تكون محاولة (٩) لخلق ذريعة اخلاقية لغزو السودان في تلك الفترة المبكرة من دولة المهدية ، وهو ما يهمنا هنا ، وظل المهدي الطويل الممدود يغطي على الآخرين وأسهُم التجريح تنصب عليه في المكان الاول ، نال الخليفة بعضاً منها بحكم موقعه ، وإن لم تكن بالغزارة التي غمرته عندما أصبح الرجل الأول .

---

(٨) MOREHEAD THE WHITE NILE, LONDON, 1961.P28

(٩) CHURCHILL P.39

وعلى رأس تلك الاتهامات ولعه بالسلطة وتشبثه بها وعدم تورعه عن أي فعل في سبيل الاحتفاظ بها . ومن هنا جاءت في قائمة الاتهامات الفرعية الاخرى : إزاحة المنافسين ولو بالتصفية الجسدية ، التآمر ، خلق شبكة جاسوسية ترفع إليه كل حركة ولفتة من منافسيه أو من منافسيه المحتملين والتعصب لقبيلته و عشيرته وإنشاء مركز قوة منهم .

إن حب التفوق والسيطرة غريزة بشرية أصيلة ، إنما المحك الحقيقى هو هل كان الاستحواذ على السلطة والتمسك بها من أجل تحقيق أهداف سامية أو لمجرد إشباع تلك الغريزة المتأصلة فيه ؟ ولقد بينّا في سطور سابقة ولاءه المطلق للفكرة وغيرته الشديدة عليها . وليس هناك من يتشكك حتى الآن في ذلك .

ثانيا: أن الخليفة لم يغتصب منصبه اغتصاباً ، فمنذ الوهلة الاولى اكتسب الشرعية اللازمة ، بل وكل الشرعية الممكنة الممثلة في تعيين المهدي له ورضاه عنه . فهو منذ البداية يقف في جانب القانون . فتفسير موقفه ممكن (اخلاقياً) ويبقى علي مناوئيه أن يفسروا موقفهم .

لقد انحصرت الدوائر المنافسة للخليفة والتي اتهم بإزاحتها في تلك الفترة في اربع دوائر : عشيرة المهدي (الاشراف) وعلى رأسهم محمد . ولم يمسهم بسوء طيلة حياة المهدي . وبعد وفاته تزعمهم الخليفة شريف وكان صبياً (١٠) ، ولعل منشورات المهدى وخطبه العديدة في ادانتهم ، وهم عشيرته في المكان الاول ، يغني عن اي حديث مطول .

كانت الدائرة الثانية (سهل كردفان) وقبائلها التي تزعمها الفكى المنا الذي

---

(١٠) ندر اوهرولدر انه ولد فى ١٨٧٠ اذ كان فى الثالثة عشر من عمره .

تعرضنا لقصته من قبل . ويحوط الابهام والغموض مصير زعيم الدائرة الثالثة (جبال كريفان) وهل أعدم أم مات مريضاً . ومن المتعذر إيجاد أي مبرر لقتل الملك آدم أم دبالو فهو الذى آوى الحركة وهي في المهد واسبغ عليها حمايته ولولاه لصفيت بسهولة . كانت نهاية أليمة لبطل من ابطال الحركة الحقيقيين ، وإن كان تعيين ابنه في مكانه وانعدام عناصر التنافس بينه وبين الخليفة تشكك بأنها كانت حالة مختلفة عن الدوائر المنافسة الأخرى ، وأن هناك جوانب خفية في الأمر .

وهنا وجب التمييز بين من شكلوا خطراً على الدعوة كلها مثل الفكى المنا ، وبين عقيل الجنقاوى ، زعيم الدائرة الرابعة (زعماء قبائل البقارة) القوية والغنية واقطابها الذين ظنوا أنهم أحق بتمثيل قبائل الغرب من الخليفة ويعقوب فهي منافسة في (البلاط) وعلى مكانة الخليفة وقربه من المهدي . وقد أثار إعدام عقيل الجنقاوي (١١) ، زعيم الرزيقات ضجة كبرى وتذمراً وسخطاً عاماً على الخليفة ، بل يرجح أن المهدى أصدر منشوره الشهير في (مكانة الخليفة) بعد أيام قليلة من حادثة الإعدام تبرئة للخليفة ، وهو ما ذهب إليه محمد عبدالرحيم : « كان خليفة المهدي يعمل أعمالاً ينكرها الناس عليه ويعرضوا ذلك على المهدي ظانين أنه هو الفاعل لذلك من تلقاء نفسه مع أن الحقيقة هي أوامر يوجهها المهدي إليه سراً وما هو إلا منفذ لها فنشأ من ذلك الخلاف بينه و بين أعيان المهدية بسبب إعدام الشيخ عقيل ودالجنقاوي الرزيقي .. (١٢) .»

ويقف [illegible] الأخلاقية [illegible] ورصد [illegible] الرجل نفسه منذ الوهلة الأولى في موقف الدفاع عن النفس عندما أحس بغربته و تبرم عشيرة المهدي منه . ويبدو أن عشيرة المهدي لم تكن

---

(١١) شقير ٧٠٤

(١٢) محمد عبدالرحيم ٧٠ / ٩ / ٥٦ ص ٧٥ .

المجموعة الوحيدة التى تكيد له فحتى عشيرته هو شخصياً سببت له الضيق والاذى : ألم يحذر سلاطين في لقائه الثاني به من الاختلاط بأقاربه الذين يحسدونه ويكيدون له وربما تسببوا في حدوث قطيعة بينهما (١٣) لم يبلغ حجم شبكة التجسس وكفاءتها في تلك الايام ما بلغه بعد توليه الخلافة وأصبحت مصدراً للقصص والنوادر التى تحدثت عن معرفته المتغيبين عن الصلاة الجماعية فرداً فرداً من سكان مدينة بأكملها .

و التعصب لقبيلته ووضع رجالها في المناصب الهامة لايستطيع أحد إنكاره وثمة توضيح يسير للظروف المحيطة به في أعوام كردفان :

ففيما يتعلق بتنصيب شقيقه اميراً للراية الزرقاء فقد اتبع سنة عامة ، فمحمد شقيق المهدي كانت له الامارة العامة على الجيش في بداية الحركة ، وموسى ودحلو شقيق الخليفة علي كانت له إمارة الراية الخضراء أما تولي أبوعنجة للأسلحة النارية فقد بررته كفاءة حمدان ونجاحه الباهر واسكتت كل اتهام بالتحيز والمحاباة . كان تعيينه (قاضياً للاسلام) وهو من بطانته هو الأمر الملفت للنظر ، ولابد أن الخليفة كان وراءه ، وخاصة بعد أن وضعه منصبه كخليفة أول على رأس الهيئة القضائية ، وأحس بحاجته إلى من يثق به لصياغة الحيثيات والأحكام في القضايا الكبيرة التي تتجاوز سلطة النواب ، وإن كانت ثقته بأحمد لم تمنعه من قتله شر قتلة بعد سنوات عندما أحس بفساده وظلمه المتسبب في مقتل الزاكي طمل (١٤) وفي الحركة المهدية كان هناك تقليد باحترام (اقدمية) المقاتلين . فأب المهدية يحدد طبقة معينة يسميهم (بأبكار المهدي) وخطابات الخليفة الأخيرة ، عندما زجر قريبه محمود ود أحمد وحثه على التعامل مع عثمان (١٥) دقنه بالإحترام الواجب (فهو أقدم منك في الدعوة) كل ذلك يبين أن موجات

Slatin P. 294 (١٣)

Newfeeld, Prisoner of the Khalifa, London 1899 P. 221 (١٤)

الهجرة الأولى لعشيرته للانضمام لقريبهم كان حقها أن تنال وضعاً ، لم ينالوه حتى سقوط الخرطوم ، فيونس وعثمان آدم وأبناء عمه الثلاثة محمود وابراهيم والخليل لم يميز أى منهم بمنحه منصباً خارج عن العرف السائد وهو انخراطهم وترأسهم لراية قبيلتهم ، فكل تلك الاسماء لرجال قاتلوا في صفوف راية التعايشة وهى راية صغيرة فرعية للراية الزرقاء (١٦)

لم تسجل المصادر حتى ذلك الحين تعصباً ضد القبائل النيلية (أولاد البحر) رغم ضآلة اعدادهم مقارنة بقبائل الغرب . فقد تحدث سلاطين عن اعجاب الخليفة بكفاءة النجومي وأنه الاقدر على مواجهة الموقف المتردي في حصار الخرطوم ، بل أن التشكيلات التى لعبت دوراً بارزاً في معركة شيكان ، كان على رأسها ابوقرجة وعبدالرحيم مساعد وعمر الياس أم برير وودالنجومي ، وملحمة الخرطوم الطويلة وسقوطها لم تشارك فيها الراية الزرقاء ولا أمراؤها ، بل حتى في العشيرة المناوئة كان الخليفة يكن وداً خاصاً لاحمد شرفي جد الاشراف ، لازمه طيلة حياته .

إذن كانت تجاوزات الخليفة في محاباته لعشيرته محدودة ومحصورة ، ولم يطفح لكيل إلا بعد وفاة المهدي وانفجار الصراع السياسي بينه وبين الأشراف . بالطبع لايستطيع أحد أن ينفى أن السبب الرئيسي في عدم محاباته لعشيرته أو تمكنهم من أعنة السلطة والنفوذ كان وجود المهدي وأنه اشتط في الأمر بعد وفاته . ولكن ما يعنينا هنا هو أعوام كردفان .

لم تبدل أعوام كردفان تبديلاً يذكر في مظهره . فالحركة المستمرة والقتال وركوب الخيل ، أبعدت البدانة التي حلت بجسده فيما بعد وتمكنت منه بعد أن ثقلت خطواته

---

(١٦) زلفو - شيكان ص ٣٥

(١٧) اقوال المرحوم امين احمد شرفي - ودنوباوي ١٩٧١

السريعه قليلاً حين أصيب بالعرج الدائم بعد سقوطه من ظهر جواد في الابيض مما جعله يلجأ الي حربة صغيرة يتوكأ عليها . لم يضايقه ذلك العرج . بل لربما أسعده ، ألم تتحدث أساطير المهدية بأن وزير المهدي سيكون أعرج ؟

استبدل عبد الله ملابسه البدوية بالزي الرسمي للأنصار ، القميص والسروال الدمور (القنجه) وحزام يتمنطق به ولثام من قماش رهيف يتدلى من فوق العمامه ، وانحصرت مظاهر الترف في (ملفحة) حريرية ألقى بها على كتفه ، ورائحة العطور القويه التي أصبح مولعاً بها مقلداً بذلك المهدي .

وعلى الرغم من آرائه العملية في الحياة ومعاملة البشر وإدراكه لطموحهم المادي ظل في قرارة نفسه زاهداً بالمال وملذات الحياه وهو يتحدث دائماً بأن (المال لعنه ومن كان غنياً في هذه الدنيا لن ينعم بالراحة ولا الفردوس) (١٨)

واختلاطه المستمر بأشتات متباينة من البشر ، والخبرات الغنيه التي اكتسبها من أعوام كريفان نمت من قوة منطقه وقدراته على الإقناع وزادت من فصاحة لسانه (فكان جهير الصوت قويه ، غزير المادة في الكلام بلهجة البقارة إلا أنه كان يحسن لهجة بتقليد أهل النيل) (١٩) . وبدأت تتطاير أنباء نوادره وقفشاته الشهيرة .

وقد قدم الأوربيون الذين عاشوا معه صورة مختلفة قليلاً تدور حول انغماسه الكلي في اداء واجباته واستسلامه الكامل لمشغولياته التي سحقته سحقاً وأدت الى ظهور الشيخوخة المبكرة ، فزحفت التجاعيد إلى وجهه وكسته بتقطيبية دائمة بدلت من تقاطيعه الوسيمة الصبوحة الباسمة ، واشية بما يعتمل بنفسه من هموم ومشاغل ، فضاق صدره واشتدت حدة طباعه وسرعة إنفعاله مما باعد المسافه بينه وبين الآخرين

---

(١٨) شقير

(١٩) شقير ص ٢٤٦

حتي الاقربين منهم ، وكالعادة نجد وصفاً متناقضاً قدمه أحد المعاصرين : (كان (٢٠) له مجلس خاص يدعى إليه الندماء فيقضي معهم حوالي الساعتين في سمر وضحك وكان يرتاح إلي النكته ولندمائه الحرية المطلقة فيما يقولون) .

والسمر والمنادمة البريئة ، وولعه بالجياد والفروسية الذى لم يفارقه قط ، لعلها كانت هواياته القليله التي تحدث عنها معاصروه ، وإن تعالت نغمة جديدة لم تبلغ ما قيل عن رفيقه الأكبر ، تحدثت عن شغفه الزائد بالنساء . وحتي لو صح هذا القول ، فهو أمر طبيعي فالرجل صحيح الجسم والعقل ودون الأربعين ، ويجب أن يُنظر إليه بمنظور العصر - عصر تعدد الزوجات والسراري . ولكن كل مراحل حياته تؤكد بأن مشغولياته وهمومه كانت أكبر ، وأن النساء كن أمراً ثانوياً بالنسبه إليه .

ولم يزد عدد زوجاته الشرعيات عن اثنين ، فبالإضافة إلي زهره ، رفيقة العمر ، تزوج من نفيسه بابكر ، ورزق بابن آخر من زهره وسماه يحيى . ولكن عثمان ظل طفله المدلل الذي بذل جهداً خاصاً في تعليمه وتثقيفه ، ووسامة الصبي وذكاؤه زادا من تعلقه به وأصبح الإبن إحدي نقاط ضعفه القليله .

---

(٢٠) محمد عبد الرحيم ٥٦/٩/٧ ص ٧٤ .

جـزيرة بـين بحـرين
(الخرطوم)

هب الجنرال من نومه المضطرب مذعوراً ، فقد أحس بجلبة غير عادية طغت على الصخب اليومي المعهود الذي اعتاد عليه كل صباح لعام كامل ، منذ أن بدأ حصار الخرطوم . لم يخب ظن الجنرال . فقد كان فجراً مختلفاً . فتلك كانت الليلة المشهودة .. ليلة الخامس والعشرين من يناير .

هل باءت مغامرته الكبرى بالفشل وخسر كل اوراق اللعبة بعد أن كاد يكسبها وأصبحت طلائع ولزلي على بعد أيام قليلة من الخرطوم ، وقد عبرت الفيافي والصحاري وسالت الدماء في اعقابها في مسيرة لانقاذ رجل راحد لم يسجل التاريخ مثلها منذ أن بعث الاغريق بسفنهم لإنقاذ هيلين طروادة ؟ .

كان النجومي وجيوشه متربصين على مرمى حجر منه ، وولزلي وجيوشه يسابقون القدر للوصول إليه وانتشاله من براثن الموت .

ولكن فات الأوان . ففي حقيقة الأمر كانت معركة الخرطوم قد حسمت منذ ساعات ، منذ أن عبر المهدي واعوانه الكبار النيل خلسة في ظلام الليل واجتمع بجيوش الحصار وبايعهم بيعة جماعية على (قص الرقاب) (١) واقتحام الخرطوم قبل مطلع الشمس.

تدافع المقتحمون عبر الثغرة الضيقة في خندق الخرطوم يدوسون (٢) اجساد

---

(١) اوراق علي المهدي ص ٩١ .

(٢) بابكر بدري — ص ٣٨ .

بعضهم البعض في اختراق سريع أشرف عليه النجومي بكفاءته المعهودة ، وقبل أن تعلو شمس ذلك النهار كان رأس غردون قد فصل عن جسده وأسدل الستار الختامي على ملحمة الخرطوم بعد شهور حافلة بدأت قبل مغادرة المهدي للرهد في ٢٢ / ٨ / ١٨٨٤ ، حين دفع بأبو قرجة أميراً للبرين والبحرين ليبدأ الحصار ، ثم امتدت أصابع المهدي الطويلة لتنسج خيوط الحصار الاستراتيجي البعيدة جاعلة المليون ميل مربع أشبه بشبكة من نسيج العنكبوت تخبط غردون كالذبابة وسطها والخيوط تلتف حوله تدريجياً ، فمحمد الخير ينشط في برير وعثمان دقنه في شرق السودان وود البصير (٣) في سنار ، ثم تضيق عليه خيوط الحصار القريبة : فود بدر (٤) في الحلفاية وحلة خوجلي والجريف . وعبد القادر (٥) في الكلاكلة ثم أبو قرجة فود النجومي في الجبهة الرئيسية بين النيلين ، ورأس العنكبوت يزحف ببطء من الغرب ليرقب عن كثب فريسته استعداداً للحظة الملائمة لالتهامها . فقد حط المهدي رحاله في شات ثم الدويم ثم الترعة الخضراء إلى أن نصب (٦) مركز قيادة الحصار في ديم أبو سعد في ٢٣ / ١٠ / ٨٦ وامتدت في لمح البصر مدينة اكتظت بمئات الالوف من الرجال بعتادهم ودوابهم.

ويحكي الشيخ محمد عوض (٧) ذكريات مريرة عن أيام الحصار في تلك المدينة وعن سكانها من قبائل الغرب الذين هاجروا مع المهدي من كردفان ودارفور . فأمدرمان كانت غابة من السنط والحشائش الجافة التي لم تستسغها أبقارهم ودوابهم . ومؤونتهم التي حملوها معهم أوشكت على النفاذ وكانت المجاعة تفتك بهم في تلك الديار الغريبة لولا همة الخليفة في توزيع الحبوب لهم وتخفيف آثارها بقدر الامكان . وقد مكن التزاحم وقلة الغذاء الأوبئة منهم فانتشر بينهم الجدري وفتك باحياء بكاملها .

---

(٣) جهاد في سبيل الله ص ٢٢٠ .

(٤) شقير ص ٤٤٥ ــ ٤٨٢ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) الكردفاني ص ٣٣٨ .

(٧) الشيخ محمد عوض

والنعمة الوحيدة ، وفرة مياه النيل الجارية والتي لم يشـاهدوا مثلها من قبل ، أصـابتهم نقـمتها عنـدما خاضوها في جذل وحبور ، فقد أصبحوا فريسة سهلة للتماسيح المتربصة الجائعة التي اختطفتهم بالعشرات .

ومع إشراقة العام على كل جيوش الحصار في شرق وغرب النيل ، وفي الجبهة الرئيسية في جنوب الخرطوم ، أولى الخليفة عناية خاصة لمعركة أم درمان التي صمدت قلعتها شهوراً طويلة وصدت تلك الجحافل ببسالة بقيادة قائدها الشجاع فرج باشا ، فقد كان يقوم (٨) بزيارات يومية ويمضي ساعات طوالاً مع أبو عنجة الذي أوكل إليه حصارها ثم الاستيلاء عليها .

لم يعبر الخليفة النيل طيلة أيام الحصار ، فقد أغنته زيارات قادة مواقع الحصار المستمرة للاشتراك في مجالس الحرب التي ترأسها المهدي - وثقة المهدي وكفاءة ودالنجومي في إدارة الجبهة الرئيسية ـــ خندق الخرطوم الممتد من النيل الازرق للأبيض وفرت عليه كثيراً من الجهد ، فوجه اهتمامه للنواحي الإدارية وإلى قلعة أمدرمان التي كان سقوطها ايذانا بسقوط الخرطوم نفسها ، فقد توافد سكانها مهاجرين إلى المهدي زرافات ووحداناً هاربين من السفينة (٩) الغارقة ، ومن ناحية أخري كانت مشاركة الراية الزرقاء وهي رايته الشخصية ضئيلة في سقوط الخرطوم ، فلم تسجل المصادر عمليات عبور تذكر من الضفة الغربية إلى الجبهة الرئيسية في خندق الخرطوم ، إما لسيطرة بواخر غردون على النيل أو لكثافة المحاصرين لجنوب الخرطوم من أهالي الجزيرة والقبائل المجاورة كالبطاحين ، والذين وقع عليهم العبء الاكبر في إقتحام الخرطوم .

---

(٨) الكردفاني ص ٣٤٢ .

(٩) شقير ٨٥٥

لم ينجرف المهدي ولا الخليفة مع هجرة الأمراء الجماعية للسكن في الخرطوم والتمتع بقصورها وحدائقها. فعلى الرغم من تخصيص قصر غردون للخليفة (١٠)، إلا أن اقامته الدائمة في الشهور الاولى ظلت في معسكر أبو سعد ، وإن لم تغب عن عينه المدققة في جولاته التفتيشية الإمكانات التقنية من بواخر وورش ومصانع ودورها المرتقب في بناء الدولة الفتية . وعندما انتشرت ظاهرة هدم مباني الخرطوم ونقل انقاضها لبناء العاصمة الجديدة في أم درمان ، حاول وقف التخريب بكل الوسائل الممكنة واصدر منشوراً بذلك شديد اللهجة (١١).

* * *

وبناء العاصمة في أم درمان ، عقب انتقال المهدي إليها بعد فترة وجيزة من سقوط الخرطوم ، كان أحد شواغله العديدة في أشهر النشاط المحموم في بناء هياكل الدولة بعد أن استقرت قيادتها في مكان واحد أخيراً . والمرجح أنه استعان بالخبرات الأوربية المتاحة في إنشاء مدينة منظمة بشوارعها الواسعة ومبانيها الرئيسية كبيت المال وبيت الامانة ومرسى الموردة الصغير (١٢) وتخصيص الأحياء لقبائل المختلفة ، في محاولة لتهذيبها وإقناعها بترك حياة البداوة والعيش المستقر المنظم داخل المدن . وانتشرت تجمعات الأسواق للحرف والسلع المختلفة : فهنا سوق اللحوم وهناك سوق الخضار وسوق الحدادين بطريقة مبتكرة أثارت إعجاب الأوربيين المعاصرين ، وكأول مظهر لسيادة الدولة الجديدة ، ضربت عملة معدنية جديدة (١٣) .

ولكن الهم الاكبر لازال هو جبهات القتال المشتعلة والتي لم تنطفئ نيرانها بعد : فسنار لازالت تقاوم ، وحملة انقاذ غردون لم تغادر البلاد بعد وبحر الغزال لم يكتمل تحريرها .

---

(١٠) شقير ٩١٨ .

(١١) ابوسليم ــ تاريخ مدينة الخرطوم .

(١٢) فوزي ٧٥ .

(١٣) OHREWALDER, P 218

وتزايد أعباء الخليفة تزامن مع ابتعاد المهدي تدريجياً عن إدارة الشئون اليومية (١٤) للدولة ، ليتفرغ لمهام التشريع الكبرى للدولة الجديدة والتخطيط للمرحلة التالية في نشر الدعوة في العالم الإسلامي ، حتى اعتكف نهائياً قبل حلول شهر رمضان حين أصدر منشوراً الصق في كل نواحي المدينة يرجو فيه أتباعه بعدم إزعاجه في شهر رمضان . « .. فلا تشغلوني بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر وخلونا للذكر والتذكار والصلوات والدعوات ومن أراد أن يرفع حاجته إلي فهاهم الخلفاء نيابة عني والنواب المعينين والقاضي فمن شغلني بشيء (١٥) في رمضان بعد هذا فلا يلومن إلا نفسه والسلام » .

ولابد أنه كان أمراً جللاً ذلك الذي جعل المهدي يقطع فترة الراحة والتأمل فيقف في آخر خطبة له بالجامع ويعبر عن يأسه من إصلاح أهله الأشراف وأنه « مل نصحهم » ويتبرأ (١٦) منهم نافضاً ثوبه ثلاث مرات . ولم تقم لهم قائمة بعدها أبداً . ولم تتحدث المصادر عن الأسباب التي جعلت المهدي يغضب تلك الغضبة العارمة ، ولكن يمكننا أن نخمن بسهولة أنها كانت حلقة جديدة من حلقات عدائهم للخليفة وتمردهم عليه ، فقد كان خصمهم الأول . وقد كان لذلك المشهد العنيف آثاراً بعيدة المدى فقد كان ذلك آخر لقاء للمهدي بجماهير عاصمته وكانت كلماته بمثابة وصيته العلنية الاخيرة ، ولم تكن الأولي : فالأقاويل تروي قولته المشهورة للاشراف « أخاف عليكم من شيئين : من الدنيا ومن الخليفة عبد الله .. فهو غيور وأنه خليفتي عليكم من بعدي فلا تخالفوه (١٧) » وفي أدب المهدية ، يتحدثون كثيراً عن أن المهدي أحس بدنو أجله منذ زمن وتنبأ به علانيه في منشور الوداع (١٨) وفي مناسبات أخرى ، كان احدها حين

---

(١٤) اوراق علي المهدي ص ١٠٦ .

(١٥) المرشد ص .

(١٦) شقير ٩٣٠ .

(١٧) اوراق علي المهدي ص ١١٠ .

(١٨) الكردفاني ص ٢٨٨ .

قام بعض أهله مهنئين بختان أنجاله (١٩) في أول مناسبة إجتماعية كبيرة منذ سقوط الخرطوم . وقد أحس بدبيب الحمي يسري في جسده في يوم الأربعاء ثالث أيام رمضان ، وتضاريت الاقوال في تحديد مرضه ، فمن قائل أنه أصيب بالإلتهاب السحائي ومن قائل أنها حمي التيفويد . ولم تفلح الأدوية ولا الأطباء المصريون (٢٠) وعلي رأسهم الدكتور حسن زكي في تخفيفها ، وازداد سعيرها للدرجة التي كان يرش جسده بالماء (٢١) البارد وهو يردد الأدعية باستمرار .

وقد اخفى مرضه في البداية تفادياً للبلبلة ، ولكن سري قلق عام في المدينة وأحس سكانها بأنه ليس مرضاً عابراً عندما تغيب عن صلاة الجمعة وأم الخليفة المصلين ولم يؤمهم الخليفة علي ود حلو كما جرت العادة عند غياب المهدي ، ثم داهم المصلين احساس بنذر شر مستطير قادم ، عندما طلب إليهم الخليفة في خطبته المقتضبة أن يصلوا من أجل شفاء المهدي (٢٢) .

كانت إمامة الخليفة للمصلين تأكيداً اخيراً من المهدي ، بما لايدع مجالاً للشك في من هو الخليفة . وفي يوم الاثنين تزايدت الحمي على المهدي ودخل مرحلة الإحتضار (٢٣) والتف حول فراشه الخلفاء وأحمد سليمان والسيد مكي ومحمد ود بشير وبعض أقاربه من الأشراف وابنته الكبري زينب ، بينما انزوت زوجته عائشة محجبة في ركن قصي . كان يستجمع قواه بين الفينه والاخرى ويصحو من الغيبوبة ويردد بأن الخليفة عبدالله خليفة الصديق و .. هو مني وأنا إليه ..

---

(١٩) علي المهدي ١٠٨ .

(٢٠) إبراهيم فوزي ص ٦٢ .

(٢١) فوزي ص ٢٤٢ .

(٢٢) منشورات المهدية ص ٨٧٠ .

(٢٣) علي المهدي ص ١١٠

ثم استجمع قواه وبجهد أخير استنفذ كل طاقته تلي الشهادتين . . وفي الساعة العاشرة إرتفعت صرخة ثاقبة متوجعة ، كانت صيحة ابنته زينب (٢٤) فقد فاضت روح المهدي . دام الشلل العقلي الذي أصيب به الحاضرون زمناً طويلاً قبل أن يفيقوا من آثار الصدمة ويعقدوا اجتماعاً طارئاً لمعالجة الموقف . ويقال أن الآراء تباينت بين إخفاء الأمر خشية الانهيار المعنوي الشامل للأنصار خاصة ولازالت افئدتهم ترنو للانتصارات العظيمة القادمة التي وعدهم بها من لا يخلف وعداً ، وبين اتخاذ تدابير عاجلة واعلان الوفاة . وأن الخليفة اضطرب اضطراباً عظيماً وهو يستمع واجماً لوجهات النظر (٢٥) المتضاربة التي تفوه بها البعض ومعظمها يدل على التخبط والاضطراب .

خرج الخليفة مسرعاً ودعا بعض خاصته مثل يعقوب والسيد المكي لاجتماع مغلق . أبان الاخير خطل الرأي القائل بتأجيل إعلان الوفاة لفترة من الزمن حتى تتهيأ الاذهان بحسبان أن اختفاء المهدي لن يثير الشكوك ، فالمنشور الأخير الذي أعلن فيه اعتكافه خلال شهر رمضان يوفر ذريعة وغطاء مناسباً . نصح السيد المكي بأن تعلن الوفاة فوراً وأن تعقد البيعة للخليفة حسب وصية المهدي .

عاد الخليفة إلى المجتمعين ومعه السيد المكي وقد استجمع شتات أفكاره وبدأ التصميم على وجهه . (٢٦) تقدم إليه السيد المكي وبايعه ، ولم يتردد الآخرون فتبعوا السيد المكي وبايعوا الخليفة وانصرفوا إلى إجراءات الدفن . حفر القبر في نفس الغرفة التي تمدد فيها الجسد المسجي . وفي حوالي الساعة الرابعة برز الخليفة إلى الجموع المحتشدة لصلاة العصر .

---

(٢٤) فوزي ص٦٣ .

(٢٥) شقير ٦٤١ .

(٢٦) شقير ص ٩٧٣

تحدث عدد من المؤرخين بأن « الخليفة شريف وقومه الأشراف حاروا في امرهم عند وفاة المهدي ولم يدروا ما يفعلون وقالوا في أنفسهم مات المهدي وقد أسس ملكاً ومهدية فلماذا نتبع ترتيب المهدية فنولي عبدالله غريب الوطن والجنس ولا نتبع ترتيب الملك فنولي ابن مؤسسه أو خليفته ابن عمه .. (٢٧) .

وليس هناك مايؤيد هذا الزعم الذي يبدو أن مبعثه ماحدث بعد سنوات وما كان من أمر هبة الاشراف المسلحة . ولكن في تلك اللحظة الحرجة لحظة وفاة المهدي ، كانت كل قرائن الاحوال تنفي حدوث ذلك التآمر .

أولاً : كان تحديد المهدي لخلفه حاسماً وقاطعاً في العام الأخير من حياته : منشور الأبيض الشهير ، تفويضه للخليفة معظم سلطاته التنفيذية وبالأخص في الشهور الأخيرة عندما ابتعد المهدي تدريجياً عن الإدارة اليومية لشئون الدولة ، إمامته للمصلين بدلاً عن الخليفة ود حلو في صلاة الجمعة الأخيرة خلافاً لما جرت عليه العادة ، ثم إدانته وتوبيخه العلني أمام الملأ لمناوئي الخليفة من الأشراف .

ثانياً : كان ميزان القوي العسكرية في العاصمة يميل ميلا حاداً إلى جانب الخليفة . فالراية الزرقاء ، وهي أكثف الرايات ، كانت تعسكر في أم درمان بقضها وقضيضها لا ينقصها إلا جهادية أبو عنجة في جبال النوبة ، أما الراية الحمراء راية الخليفة شريف ، وهي بدورها راية قوية وتضم كل سكان النيل والجزيرة والقبائل الشمالية المحيطة بأم درمان ، فقد شاءت الظروف أن تكون معظم جيوشها موزعة خارج العاصمة : عبد الرحمن النجومي بجيش كبير في المتمة يطارد بقايا حملة الانقاذ ، محمد عبد الكريم بجيش آخر يحاصر سنار ، محمد (٢٨) خالد زقل في

(٢٧) شقير ٩٧٤ .

دارفور وكرم الله (٢٩) كركساوي في بحر الغزال ، وتحت قيادة كل منهم شريحة لا يستهان بها من الراية الحمراء . أما الراية الخضراء ، راية الخليفة علي ود حلو ، فقد كان زعيمها أول من بايع الخليفة لاسباب مفهومة : فهو الرجل الثالث رسمياً ، وكل خلل يصيب شرعية الخلافة ينصب عليه أيضاً .

أما الوثائق فهي تقطع بأن انتقال السلطة تم بسهولة ويسر وأن الأشراف بالذات أصدروا منشورا بعد وفاة المهدي في تأييد الخليفة عبد الله كان أقوي لفظاً وأوضح بياناً من المنشور الذي أصدره الخليفة نفسه (٣٠) .

أم الخليفة المصلين في صلاة سريعة ختمها مسرعاً وترك جموع المصلين بقلوبهم الواجفة المترقبة ، وقد تعلقت عيونهم به ، وتعالت الهمسات هنا وهناك خاصة عندما أمروا بعدم البكاء والعويل .

استدعى عبدالله كل الكبار من أهل المهدي ومن أركان الدعوة حيث اشتركوا في دفن المهدي في نفس الغرفة التي توفي فيها وهم (٣١) يرددون ((الله أكبر)) بايقاع منتظم رددته الوف الجماهير المحتشدة خارج الغرفة بلا وعي وهي تحس أن شراً مستطيراً قد وقع .

وبعد مراسم الدفن استدعي ملازمو الخليفة ، ومن بينهم سلاطين ، ليبايعوه ثم وجهوا بوضع المنبر في باب المسجد وإخطار جموع المصلين بأن الخليفة في طريقه إليهم . عادوا بعد إنجاز مهمتهم وأبلغوا الخليفة باكتمال الاستعدادات . خرج الخليفة واعتلى المنبر .

(٢٨) SLATIN P. 241

(٢٩) HOLT P. 196

(٣٠) حاشية المحقق — أبو سليم — شعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ص ٣٩١ .

كان في حالة من التوتر والإنفعال العظيم ، وقد غطت الدموع وجهه وأهتز كل جسده . تخافتت الاصوات والهمهمة والتكبير تدريجياً وساد صمت ثقيل قطعه الخليفة بصوت مرتجف في البداية ازداد علوا وثباتاً :

« يا أصحاب المهدي . . . لا مردّ لقضاء الله . . . . لقد غادرنا المهدي إلى الجنة . . . وعلينا أن نتبع تعاليمه بالحرف وأن نتحد ونتساند كما يتساند الطوب والطين في بناء الحائط وأنتم انصاره وأنا خليفته . . . فاقسموا الآن اليمين لطاعتي ومبايعتي ..» (٣٢)

تقدم الخليفة علي ود حلو وبايع الخليفة للمرة الثانية علناً وتبعته جموع المصلين جماعات تردد خلف الخليفة بيعة المهدية التي عدلها تعديلا طفيفاً لتصبح « بايعنا الله ورسوله ومهدينا وبايعناك على طاعة الله . . . . »

غربت الشمس وأوغل الظلام وظل الخليفة على المنبر لساعات طوال وهو يتلقى البيعة آلاف المرات لم يقطع وقفته إلا لبرهة قصيرة احتسى خلالها الماء ليبلل حلقه الجاف .

وعندما أوى ملازمه سلاطين إلى فراشه بعد يوم مرهق لم يفارق فيه الخليفة ، ظل طول الليل يستمع وهو بين اليقظة والمنام إلى أحاديث الماره وهم عائدون إلى منازلهم في مدح المهدي وعن عزمهم على تأييد الخليفة وطاعته حتى تتحقق نبوءات المهدي . اجتاز عبد الله الإختبار بنجاح .

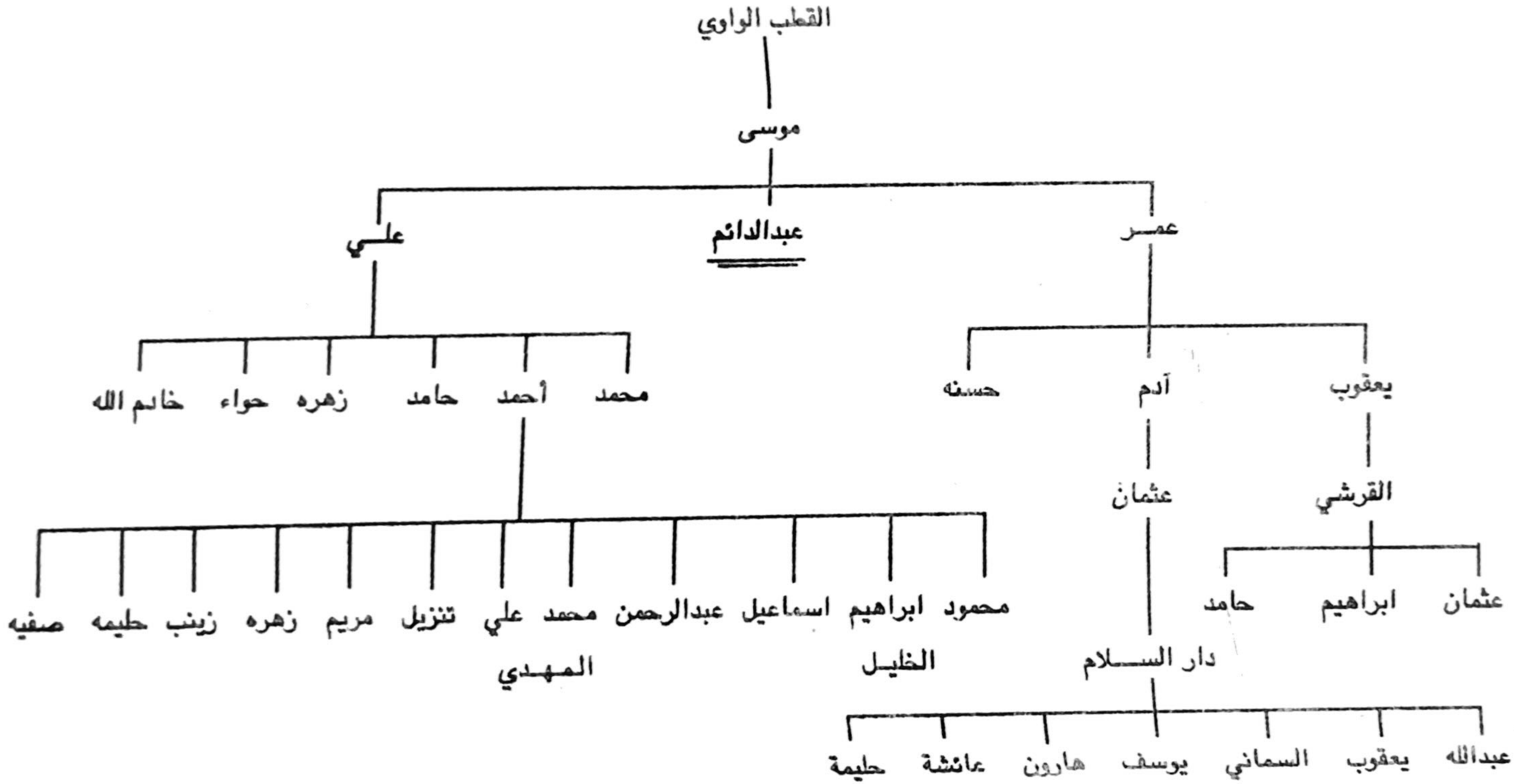
وفي منتصف اليل وتحت إلحاح الآخرين ختم الخليفة البيعة وترجل عن المنبر . مضى إلى منزله وأوى إلى مخدعه ليقضي ليلاً مؤرقاً . . فقد بدأ عهد الخليفة عبدالله .

---

(٣١) فوزي ص ٦٣ .

(٣٢) SLATIN. 241.

شجرة العائلة المباشرة



المصادر

المصادر الأولية :

أ - منشورات المهدية - تحقيق الدكتور ابوسليم - بيروت ١٩٧٩م

ب - المرشد الى وثائق المهدية - دكتور أبوسليم : تصنيف مكاتبات المهدي بالموضوع والرقم والتاريخ الهجري والميلادي يستخرج منه بسهولة فائقة الوثيقة الكاملة لأى من مكاتبات المهدي أنظر الوثائق ذات الارقام التالية : ٧٨ - ٩٧ - ٩٨ - ١٦٢ - ١٦٩ - ٢٢٧ - ٢٤٥ - ٢٦١ - ٢٧٦ - ٢٧٧ .

ج - الخاص والعام في مكانه الخليفة عبدالله : مجموعة وثائق حررها المهدي وانتقاها الخليفة وأمر بطبعها للتذكير بمكانته بعد خلافه مع الاشراف ٥٧ صفحة .

د - مذكرات الزبير باشا . جامعة درم (بدون رقم)

(مخطوطات) :

أ - مخطوط محمد آدم حلو . النسخة الاصلية بيد عبدالسلام الخليفة .

ب - مخطوط علي المهدي - دار الوثائق المركزية - طبع في هيئة كتاب بعنوان « جهاد في سبيل الله » تحقيق عبدالله محمد أحمد .

ج - سيف المجاهدين في اعناق الملحدين : عبدالوهاب أحمد الحاج الامين - مهدية ٨ / ١١ / ٧١ - قسم ثاني .

د - مخطوط حمدان أبوعنجة : سليمان محمد سليمان

هـ - معجم الشخصيات - محمد عبدالرحيم - دار الوثائق المركزية ٥٦٩٣ .

١ . الخليفة عبدالله

٢ . الفكي المنا .

٣ . محمود ود أحمد .

٤ . الأمير يعقوب .

٥ . إبراهيم الخليل أحمد .

٦ . السيد محمد تورشين .

٧ . حمدان أبوعنجة .

و - مخطوط مذكرات يوسف مخائيل .

دراسات

أ - الإمارة والخلافة - دكتور أبوسليم .

ب - الخليفة عبدالله .

دوريات :

أ - عبدالخالق محجوب - الخليفة عبدالله
أعيد نشره في جريدة الميدان ٢٨ / ١٢ / ١٩٨٦م

ب - عزالدين المهدى - الخليفة عبدالله - نشر فى مجلة الدستور // ١٩٨٦

ج - محمد عبدالرحيم - مجلة أمدرمان - الاعداد الرابع ٣١ / ١٠ / ٣٦ - السادس ٣٠ / ١١ / ٣٦ - السابع ١٥ / ١٢ / ١٩٣٦م .

(الشفاهية) .

أ - أقوال الشيخ محمد عوض . كان عمره مائة وعشرون عاماً في ١٩٧٨م عاصر والد الخليفة في دار التعايشة و بايع المهدي في الابيض وهاجر معه إلى أمدرمان . شريط مسجل .

ب - عبدالسلام الخليفة عبدالله : أقوال في هيئة أجابة عشرين سؤالا وهو أصغر أبناء الخليفة .

ج - أقوال سليمان الخليفة عبدالله .

د - أقوال عبدالرحيم الخليفة عبدالله ١٩٧١ .

هـ - أقوال زينب بنت الامير محمود ١٩٩٧١ .

و - محمد داؤود الخليفة : مذكرات مكتوبة و شجرة عائلة الخليفة .

ز - اسحاق الخليفة شريف .

مؤلفات منشورة :

أ - أبوسليم ، محمد إبراهيم - الحركة الفكرية في المهدية - الخرطوم ١٩٧٠ .

ب - ابو سليم ، محمد إبراهيم : تاريخ الخرطوم ، بيروت ١٩٨٠ م .

ج - التونسى ، محمد عمر . تشحيذ الاذهان في بلاد العرب والسودان - القاهرة ١٩٧٦ .

د - القدال ، محمد سعيد : السياسة الاقتصادية للدولة المهدية - الخرطوم ١٩٨٦ .

هـ - الكردفاني ، إسماعيل عبدالقادر . سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي (تحقيق ابو سليم)

و - فوزي إبراهيم باشا - السودان بين غردون و كتشنر من جزئين القاهرة ١٣١٩هـ .

ز - أديب مجهول . رسائل في أحداث السودان ، مجموعة لمؤلف يخفي اسمه نشرت في جريدة الاهرام القاهرية وجمعت في كتاب يحاول المؤلف أن يبرهن فيه أن كل احداث الثورة المهدية ماهى إلا مؤامرة من تدبير المخابرات البريطانية .

ح - شقير ، نعوم - جغرافية وتاريخ السودان - بيروت ١٩٧٢م .

ط - المهدى ، الصادق - الجزيرة أبا ودورها في نهضة السودان ، منشورات الأمة .

ي - سليمان محمد سليمان :

١ . ابوعنجـــة - الخرطوم ١٩٥١م .

٢ . الزاكي طمل - الخرطوم ١٩٥٢م .

ك - المعلوف - اليوزباشـي طيب أمين المعلوف - إحتلال بحرالغـزال مجلـة الجمعيـة المصرية للدراسات التاريخية - المجلد الرابع - العدد الثاني . مايو ١٩٥٢ .

ل - المبارك ، موسى . تاريخ دارفور السياسي - الخرطوم .

م - حمزه ، ميمونة ميرغني - حصار وسقوط الخرطوم ١٩٧٢ م .

العقاد - عباس محمود - العبقريات الاسلامية . بيروت ١٩٦٨ .

ن - عبد الرحيم ، محمد . النداء في دفع الافتراء القاهرة ١٩٥٢ .

س - شبيكة ، مكي - تاريخ شعوب وادي النيـل بيروت ١٩٦٥ .

EUROPEAN SOURCES

A. BADRI, GASIM :
MA THESIS, BEIRUT UNIVERSITY.

B. CASSATI, GAETANO, TEN YEARS IN EQUATORIA. LONDON, 1891 VOL I.

C. CHURcHIL ,WINSTON.THE RIVER WAR - LONDON, 1899 VOL I.

D. HOLT, P.M. HE MAHDIST STATE .
OXFDRD, 1958

E. HILL, RICHARD. BIOGRAPHICAL, DICTIONARY OF THE ANGLO SUDAN. LONDON 1967.

F. MCMICHAEL H.A. AHISTDORY OF THE ARABS IN THE SUDAN. LONDON, 1967 VOL I.

G. NACHTINGAL, G, SAHARA AND SUDAN. LOSANGLOS 1971 NEWFIED, C, APRISONER OF THE MAHDI - LONDON 1900

H OHRWALDER. FATHER JOSEPH. TEN YEARS CAPTIVITY IN THE MAHDIST CAMP. LONDON 1892

I. PITCHARD - EVANS. THE NUER.
EVAN NEW YORK. 1979.

J. SLATIN, RUDOLF. FIRE AND SWORD IN THE SUDAN. LONDON 1896.

K. WINGATE, F, R. MAHDISM IN THE ANGLO EGYPTIAN SUDAN. LONDON 1968.

PERIODICALS :

SUDAN NOTES AND RECORDS VOL 21
P.2 SOME NOTES ON THE KHALIFA ABDULLAHI
P. 208